رواية

رسائل وشظايا

جابر القصاص

رواية

رَسَائِل

وَشَظَايَا

جابر القصاص

الفصل الأول

ظِــــلال

(١)

السفر عبر الزمن؟! أي هراء هذا؟! وأي مخبول يمكن أن يصدقه؟!

***

عينان ثابتتان لا تطرفان، نظرات ثابتة مستريبة تحاول أن تخترق الجلد، وتتوغل أسفل الضلوع حتى تصل إلى مكنون القلب.. نظرات لا تُشبه نظرات العابرين، بل تحمل في بريقها واحمرار بعض أجزائها غموضًا ثقيلًا، كأنها تفتّش في دواخل الأشياء وتُنقّب عن الأسرار المطمورة في الزوايا المظلمة للنفوس.

لم تكن نظرات عادية، بل أقرب إلى وشمٍ خفيٍّ يُخلّف أثره على الجلد دون أن يُلامسه، وكلما التقت عيناي بهاتين العينين المستريبتين شعرتُ كأن شيئًا ما يُسرَق من داخلي، جزءًا من يقيني، من ثقتي، من اطمئناني.

نظرات تشي بالشك، من المؤكد أنه يشك في كل شيء، حتى في صمتي، وفي ابتسامتي الزائفة التي صارت عفوية بحكم المهنة والطبع، لكنني لست واثقًا ما إذا كانت عفوية بحكم الطبع هذه المرة، أم أنني رسمتها على شفتيّ دفاعًا عن النفس.

نظرات جعلتني أرتبك من أول وهلة، ومع الوقت ارتفعت وتيرة ارتباكي وتوتري، لتتعثّر كلماتي وأنا أحاول النطق بها، إنها نظرات تحاكمني على غير جريمة اقترفتها، وتزرع في قلبي بذور الشك في نفسي، والشك في الحروف المبعثرة التي تصدر مني في اهتزاز:-

- "تحت أمرك يا سيدي."

نظرات تخترقني وهي تتساءل عما إذا كنت أخفي شيئًا، لينتقل التساؤل منها إليّ، وأجدني أسأل نفسي بنفسي عما إذا كنت أخفي شيئًا حقًا؟!

نظرات كأنها مرآة مُشوّهة تعكس صورة غريبة عني، وكلما حاولت أن أتماسكك، أو أفر منها، أجدني ملاحقًا منها، كطيف هولامي لحوح، يتحرك في خفة وصمت، لكنه صمت مشحون بالريبة، يترك خلفه صدًى لا يُسمَع، لكن يُشعَر به في الأعماق.

- "سأخبرك بكل شيء يا سيدي.. أتعهد بهذا! لكن.. ما الذي تريد أن تعرفه حقًّا يا سيدي؟!"

* * *

السفر عبر الزمن؟!

ما هذا الهراء؟ هل من مخبول في العالم يمكنه أن يصدق هذا السخف، ويسأل عنه؟

لكن هذا السائل - الذي تبين فيما بعد أنه أنثى - يبدو مصرًا على أن يعرف، ويلح في الأمر بشكل غريب! في البدء جاءتني رسالة على رابط (صراحة)، الذي يخفي هوية المرسل، وكانت الرسالة قصيرة لكنها مثيرة: "من فضلك أجب عن سؤالي: هل السفر عبر الزمن حقيقي؟ هل العلم أو الدين أقرَّا بإمكانية حدوث أمر كهذا؟ أريد الإجابة بشكل ضروري!"

بالطبع تجاهلت الرسالة، فقد اعتدنا على رسائل الشباب العابث الذي يطرح أسئلة غير منطقية، أو اعترافات عبثية، لمجرد أنه يريد أن يتسلى ويضحك وهو يتابع التعليقات وردود الأفعال تجاه رسالته، لكن هذه الرسائل العابثة عادة تتخذ (الجنس) موضوعًا لها، فهو الشيء الذي يثير اهتمام وشغف الجميع، أما أن تأتي رسالة كهذه تتناول أمرًا ميتافيزيقيًا، أو من باب الخيال العلمي،

فهذا شيء غير مألوف بالنسبة لي بالمرة، لكني لم أملك إلا أن أتجاهل السؤال.

إلا أنه بعد يومين جاءتني ذات الرسالة، ولكن هذه المرة عبر (ماسينجر)، وكان المرسل عبارة عن أنثى تستعمل اسمًا يبدو حقيقيًا، وتضع صورة تبدو حقيقية، والسؤال يحتفظ بذات النبرة اللحوح!

هذه المرة – أعترف – أثار الأمر اهتمامي وفضولي بشدة، وقررت أن أكترث بالأمر، فرددت على الرسالة بسؤال:–

– "ما الذي يجعلك – سيدتي – مهتمة بهذا الأمر إلى هذا الحد؟"

بعد ساعات أتاني جواب سؤالي مرتبكًا:–

– "لا، لا .. شي.. شيء.. فقط.. فقط، قرأت قصة خيالية عن.. عن الأمر، وأردت أن أتحقق منه، هل يمكنكم مساعدتي؟"

بالطبع لم يكن جوابًا مقنعًا، ارتباكها، ترددها في الإجابة، بعثرة حروفها، كل شيء يوحي بأن شيئًا ما ليس على ما يرام! لكني مطالب بأن أتوقف عند هذا الحد، فأنا مجرد مذيع في تطبيق اجتماعي يبث عبر فضاء الإنترنت الشاسع، واستطعت أن أكتسب لنفسي – ولبرنامجي – سمعة وهيبة ووقارًا يمنعونني من التمادي في المحادثة مع امرأة تبدو شابة حسناء قلقة.

كما أني مطالب بنقل السؤال إلى مختص يجيب عنه، هكذا الأمر دائمًا، أنا أفتتح الحلقة بابتسامة، مرددًا ذات العبارة الأثيرة:–

– "أهلًا بكم، أعزائي المشاهدين، وحلقة جديدة من (بودكاست من القلب للقلب).."

ثم أنتقل إلى الضيف الذي يتغير مع كل حلقة، لكنه يكون على علم تامّ بالأسئلة التي ستوجه إليه، ومتحفزًا للإجابة عنها، وأنا مطالب بنقل هذه

الأسئلة إليه بشكل محايد، ومناقشته في إجابته بشكل أكثر حيادية، المشكلة أنني لست معتادًا ولا مهيئًا لنقل أسئلة كهذه، ولا مناقشة أجوبتها، إنه أمر خزعبلي لا يمكن الإمساك به من أية نقطة، أو أية زاوية، وسوف تكون الإجابة عنه عائمة لا تشبع فضولًا، ولا تشفي رغبة أو حيرة.

في تلك الحلقة كنت أستضيف الشيخ (حامد عبد الراضي) إمام المسجد القريب من مسكني، وهو رجل دين مسالم لكنه مفوّه، ويعرف كيف يتحدث بلباقة في شتى الأمور، وجاءت إجابته كالتالي:-

- "الدين يا سيدتي لا ينظر إلى الزمن كعنصر جامد أو ميكانيكي فقط، بل كمخلوق من مخلوقات الله، وفي الإسلام: الزمن لا يأخذ خطًا مستقيمًا ومطردًا فحسب، بل هو نسبي، ويمكن أن يُطوى أو يُمد بأمر الله، قال تعالى: {وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}، وقال جل شأنه: {فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ}، وقد اشتمل القرآن على قصص ترتكز على خرق مفهوم الزمن بامتداده الطبيعي، مثل قصة أصحاب الكهف، أو (عزير)، أضف إلى ذلك أن للنبي صلى الله عليه وسلم معجزة تخرق الامتداد الطبيعي للزمن، وهي معجزة الإسراء والمعراج التي وقعت جميع أحداثها في ليلة واحدة، لكن هذه الخوارق ليست هي الأصل في حياتنا، وهي خاضعة لقدرة الله جل وعلا.

والمحصلة من هذا كله: أن الزمن منضبط بإرادة الله، ويتصرف فيه كما يشاء، وهذا المفهوم يفتح الباب لفهم إمكانية (اختراق الزمن) أو (تجاوزه) ضمن حدود القدرة الإلهية، وليس وفقًا لقوانين المادة فقط، والأديان لا تُنكر احتمال وجود ظواهر تتجاوز فهمنا الحالي، طالما أنها لا تتعارض مع العقيدة، وإن وُجدت وسيلة علمية تحترم القوانين الكونية التي وضعها الله، فقد تكون مقبولة".

هذا ما قاله الشيخ، وبالطبع لم تكن الإجابة شافية بالمرة، ولهذا جاءت الرسالة التالية منها مضطربة:-

- "هل معنى هذا أن السفر عبر الزمن ممكن؟ أريد إجابة واضحة ومباشرة من فضلك!"

لكن.. لا أنا، ولا الشيخ، كنا نملك الإجابة القاطعة عن هذا السؤال!

***

سأخبرك بكل شيء يا سيدي! لن أكتم عنك أي شيء.

اسمي؟ حسنٌ، أنت تعرف اسمي، بدليل أنك هنا أمامي، أنتم تعرفون كل شيء عن أي شخص، ليس كل شيء على المطلق بالطبع، بدليل أنك هنا لتعرف ما لا تعرفونه، على أية حال اسمي: (فيصل فراج)، أسكن بمنطقة أرض اللواء بمحافظة الجيزة، ولا زلت أعزب.

عمري؟ هل يهمك هذا؟ يفترض أنك تعرف هذا كذلك، لكن لا بأس، لن يضيرني أن أخبرك به، لقد أتممت منذ أيام عامي الثامن والعشرين، وإن كان شكلي يوحي بأني أصغر من هذا، فأنا أهتم كثيرًا بمظهري كما ترى، خاصة بعد أن دخلت هذا المجال الإعلامي.

دراستي؟ لقد تخرجت في كلية الآداب قسم الإعلام، عرفت بالطبع أني لن يكون لي مكان في التليفزيون بلا واسطة، فقررت أن أستفيد من كنز السوشيال الميديا المترامي، أنشأت صفحة عادية لتلقي الاعترافات وعرض المشكلات، ونجحت – بمساعدة بعض الأصدقاء والأقارب – في الحصول على آلاف المتابعين، ثم طورت الفكرة وأنشأت مجموعة خاصة لعرض المشكلات، وأرفقت بها رابط (صراحة) لتلقي الرسائل دون الكشف عن هوية المرسل، واستعنت بعدد من الأصدقاء لمعاونتي في ترتيب الأسئلة ونشر إجابات لها،

ثم طورت الفكرة أكثر وأنشأت برنامجي الخاص على بودكاست ويوتيوب، وأصبح لي ملايين المشاهدين والمتابعين في جميع أنحاء الوطن العربي، وصرت أجني ثمار ذلك ماديًا ومعنويًا، لقد صرت نجمًا معروفًا بين الشباب، وأصبح هناك عدد من أصحاب القنوات الفضائية يقدمون لي عروضًا للعمل معهم لكني لا زلت مترددًا في قبول أحد هذه العروض.

ما الذي يجعلني أترك مملكتي التي شيدتها بصبر ومثابرة على السوشيال ميديا، وأنا المتحكم الوحيد بها، وأجني منها أرباحًا لا بأس بها، لأخضع لسيطرة آخرين يتحكمون في المادة التي أقدمها، وأصير أجيرًا لديهم يمكنهم الاستغناء عني في أية لحظة؟

لم أتزوج بعد، بالرغم من أني محاط بالحسناوات، ربما لأني لم أعثر بعد على تلك التي تجعلني أفقد صوابي وأتزوج منها، المشاكل التي أتلقاها على مدار الساعة، وأغلبها زوجية، جعلتني أكوّن انطباعًا عن الزواج أنه الجحيم ذاته، ما الذي يدفعني لأن ألقي نفسي في الجحيم إلا امرأة تفقدني صوابي؟

المهنة؟ أعمل لحسابي الشخصي، أقدم برنامجًا على بودكاست ويوتيوب، يهتم بمشاكل الناس الاجتماعية والعاطفية، وتقديم حلول لها، وأنا لا أقوم بدور المقدم والمحاور فقط، بل أنا المنتج والمصور والمخرج والمُعِدّ، والقائم بأعمال المونتاج والماكساج، كل شيء يحتاجه البرنامج أقوم به، وأستضيف أشخاصًا من دائرة معارفي ليقوموا بدور الشخص الذي يقدم النصائح والحلول، وأدفع لهم بعض المال بما لا يؤثر على أرباحي من الحلقة.

لقد حقق برنامجي رواجًا كبيرًا بين الناس، الشباب خاصة، والأمر لم يعد يقتصر على رسائل تصلني عبر التطبيقات المختلفة، فجوالي لم يعد يكف عن الرنين، واستطاع كثير من الناس التوصل إلى عنوان سكني، وصار بيتي قبلة

للضيوف الغرباء طيلة الوقت، بخلاف من ألتقيهم في الشارع، أو المسجد القريب كلما خرجت لشراء شيء، أو لتأدية الصلاة.

الناس تعاني بشدة يا سيدي، لا أحسب زمانًا أصبح فيه الإنسان منسحقًا ومغلوبًا على أمره مثل هذا الزمان، وهم بحاجة إلى من يأخذ بأيديهم ويرشدهم إلى الطريق، ولو بكلمات مجردة، وهذا ما أقدمه لهم: كلمات لا أكثر.

هذا لا يمنع بالطبع أن هذا الفكرة فتحت عليّ بابًا عريضًا من العبث، فقد فوجئت بعشرات الرسائل التي تحتوي على شتائم وإساءات، أو أسئلة شاذة ووقحة، لكني اعتدت هذا مع الأيام ولم يعد يزعجني.

السفر عبر الزمن؟ ما هذا الهراء؟ من المخبول الذي قد يصدق مثل هذا السخف؟

أنا لست صداميًا بطبيعتي، وأتجنب المشكلات دائمًا، وطوال حياتي لم أفتعل مشكلة مع أحد، وأحرص بشدة على تجنب الخوض في أية خلافات دينية أو أيديولوجية أو سياسية، وأتجنب أيضًا خوض نقاشات حادة مع المتطرفين في آرائهم، كذلك لا يعنيني كثيرًا أن يقتنع الآخرون بإجاباتي من عدمه، ولا أقاتل من أجل الانتصار لآرائي، وأستعمل الدبلوماسية في جميع الأحوال، ولذا أظن أني محبوب جدًا من قبل كثير من الناس، كما أعرف أن هناك من يحقد عليّ ويعتقد أني أحصل على أكثر مما أستحق، وهناك أيضًا من يراني سمجًا ثقيل الظل، ولا يعنيني أي شيء من هذا.

لكن الخطير في الأمر يا سيدي: أن برنامجي وحساباتي الشخصية تحولت مؤخرًا إلى منصات اعترافات، كل يوم تصلني بعض الاعترافات من مجهولين أنهم ارتكبوا فظائع وخطايا، ومطلوب مني أن أرشدهم إلى الصواب، بل مطلوب مني أكثر من هذا: أن أمنحهم الخلاص، كأني قس في كنيسة!

لكن.. السفر عبر الزمن؟ ما هذا الهراء؟!

ومع ذلك سوف أخبرك بكل شيء يا سيدي.. كل شيء!

***

(٢)

- "للأسف لم أعثر عليها، أنا آسف حقًا!"

كانت تتوقع ذلك الجواب، ومع ذلك صدمها الأمر، وشعرت بكثير من الضيق، لكنه ابتسم فجأة وقال:-

- "لكني عثرت على حل!"

ثم أخرج من درج المكتب مجموعة من الأوراق مقاس (A4)، وكانت مطبوعة بشكل أفقي مزدوج الصفحات، ومدّها إليها قائلًا:-

- "قمت بتحميلها بصيغة (PDF)، ثم طباعتها من أجلك."

تهلل وجهها فرحًا، وشعرت بكثير من السعادة، وأمسكت بالأوراق بين يديها في لهفة، وشرعت في تقليبها وتفحصها، ثم رفعت عينيها الجميلتين تجاه الفتى، وقالت:-

- "إنها بالإنجليزية!"

شعر الفتى بالحرج، وتنحنح بلا معنى، ثم قال:-

- "في الواقع لم أعثر عليها مترجمة، وفكرت أن أكلف صديقًا لي بترجمتها لكني ....!"

قاطعته قائلة بحماس:-

- "بالعكس، هذا أفضل، أنا أجيد الإنجليزية إجادة تامة، وأود قراءتها بلغتها الأصلية كما سطرها الكاتب.. شكرًا لك! حقًا!"

زال الإحساس بالحرج عن الفتى، فابتسم قائلًا:-

- "على الرحب."

ظلت (رحيل) ممسكة بالأوراق تقلب فيها، وعيناها الجميلتان تختلسان بضع كلمات من كل صفحة اختلاسًا، وكأنها تريد أن تطمئن إلى أنها هي الرواية بعينها، وكانت سعيدة حقًا وهي تفعل ذلك، ولا تصدق أن الرواية بين يديها الآن بعد أن أعياها البحث عنها.

قال لها الفتى محاولًا إطالة الحوار معها:-

- "(ستيفن كينغ) عقلية مذهلة، ولديه قدرة فائقة على مزج الفانتازيا بالدراما الاجتماعية والنفسية، لم أر كاتبًا آخر يجيد هذا إلا د. (أحمد خالد توفيق) في بلادنا."

قالت دون أن تنظر إليه:-

- "معك حق، لكني في الحقيقة لست من هواة هذا القالب الذي يقدمه (ستيفن كينغ)."

بدا كلامها غريبًا ومناقضًا بشدة لتلك اللهفة والسعادة اللتين أظهرتهما عند حصولها على الرواية، خاصة أنها ألحت كثيرًا على الحصول عليها في الأيام الماضية، وشعرت هي بحيرته، فرفعت بصرها نحوه وقالت موضحة:-

- "أنا أميل إلى الروايات الهادئة الخالية من الحركة والدموية والرعب النفسي، كل ما في الأمر أني شاهدت المسلسل الذي أنتج عن أحداث هذه الرواية، وراقتني الفكرة وأداء الممثلين، وأردت أن أتعرف النص الأصلي للرواية، هل هو بنفس الروعة أم لا، هذا كل شيء."

أومأ الفتى برأسه متفهمًا، وقال:-

- "إن فكرة السفر عبر الزمن مثيرة للفضول والشغف عادة، وأول من كتب في هذا الصدد (هربرت جورج ويلز)، وتبعه آخرون، لكن عن نفسي أفضل ما قرأته حول هذه الفكرة: رواية (Kindred) لكاتبة اسمها (أوكتافيا باتلر)، تتناول

حقبة العبودية في الغرب الأمريكي، مؤثرة جدًا، وهناك أيضًا (The Time Traveler’s Wife) للكاتبة (أودري نيفينغر)، فيها لمسة رومانسية وعمق نفسي كبير."

ابتسمت قائلة:-

- "سأسعى لقراءتهما طالما أنت ترشحهما."

تهلل الفتى لهذه العبارة، فهي شهادة صادرة من أكثر زبائنه جمالًا ورقيًا وتهذيبًا، لم يكن يعرف عنها سوى اسمها (رحيل)، ورقم هاتفها الذي أعطته هي إياه طواعية ليتصل بها متى عثر على تلك الرواية، وقد فعل لمرة واحدة فحسب، لكنه بالتأكيد سيبحث عن حجة أخرى مستقبلًا ليتواصل معها عبر الهاتف.

لكن (رحيل) كانت مشغولة عنه تمامًا بهذه الرواية، ولا تزال تقلب في صفحاتها للتأكد من أنها هي الرواية التي أرادتها، إلا أنها توقفت فجأة عن التقليب والتفتت إلى الجهة اليمنى كأنها تبحث عن أحد، لكن لم يكن ثم إلا الفراغ، وظلت تبحث بعينيها برهة من الوقت، ثم التفتت إلى البائع الشاب وسألته باهتمام وقلق:-

- "هل لمحت أحدًا يقف هناك عند ذلك الرف؟"

وأشارت إلى جهة ما عن يمينها، لكن الشاب قال ملاحظًا قلقها:-

- "لست واثقًا من أني رأيت أحدًا، لكن هذه مكتبة، من الطبيعي أن يتواجد بها بعض الزبائن يطالعون الأرفف والكتب."

كان المنطق الذي يتحدث به محكمًا تمامًا، فعادت تنظر حولها في كل اتجاه، وهي واثقة من أن أحدهم كان يقف في تلك الجهة ينظر إليها كالمراقب، إلا أنها لم تلبث أن قررت صرف الفكرة عن بالها، وأن تسارع

بالانصراف متوجهة إلى منزلها لتشرع في قراءة الرواية بتركيز، وأمسكت بحقيبتها الأنيقة الصغيرة، وبحثت بداخلها عن أوراق نقدية، وبعد لحظات امتدت أصابعها الرقيقة تجاه البائع ممسكة بورقة نقدية من فئة المائتي جنيه، كثمن لطباعة هذه الأوراق، لكن الفتى رأى هذا المبلغ كبيرًا جدًا، وحاول أن يرفض أخذه، إلا أنها أصرت، وقالت مبتسمة:-

- "لقد بذلت جهدًا في البحث، وفي تحميل الرواية وطباعتها، وأشكرك كثيرًا على هذا، هذا أقل مما تستحق في الحقيقة."

شعر الفتى بالضيق، فلم يكن يود أن تكون علاقته بهذه الحسناء بالذات علاقة زبون بمتجر، لكنه لم يملك أمام إلحاحها سوى قبول الثمن، وحاول أن يعيد لها نصف المبلغ، لأن تكلفة التحميل والطباعة لا تستحق أكثر من النصف، إلا أنها لم تقبل إلا أن تعطيه المائتي جنيه كاملة، وتركتها في يده، وسارعت بالانصراف لكي لا تطيل الجدال، وتنهي هذا الحرج.

وفي طريق العودة إلى منزلها، كانت تجلس بالمقعد الأمامي من سيارتها الخاصة، وتضع الأوراق المطبوعة على المقعد المجاور لها، وكانت تمد يدها بين الفينة والفينة لتقلب في الأوراق، وتحاول استراق بعض العبارات ببعض الصفحات دون أن تفقد تركيزها في القيادة، وكانت لا تلبث أن تعود مجددًا إلى مطالعة صفحة الغلاف التي انقسمت إلى جزءين: الجزء الأعلى ذي خلفية حمراء بلون الدم، وكتب فيها بخط أسود بارز: (Stephen King)، وأسفل منه بنفس الحجم واللون والبروز: (11/22/63)، وهو اسم الرواية.

أما الجزء السفلي من الغلاف فكان عبارة عن تصوير لخبر منشور بجريدة قديمة عن مقتل الرئيس الأمريكي (كينيدي)، وبداخله صورة مكبرة للرئيس الأمريكي الصريع وهو يجلس داخل سيارته ينظر إلى الحشود مبتسمًا في

لحظات ما قبل وقوع الكارثة.

لكن (رحيل) تذكرت بغتة ما حدث أثناء وجودها بالمكتبة، كانت متأكدة من أن أحدهم كان يقف على مقربة ينظر إليها مدققًا النظر، وهي تجاهلت هذا الشعور في البداية، لأنه من الطبيعي أن يحدث لفتاة جميلة مثلها، في أي مكان تحل به، لا بد أن يكون هناك من ينظر إليها متفرسًا في ملامحها، إلا أنها شعرت بالفضول مع مرور الوقت وأرادت أن تنظر إلى ذلك المراقب، فلم تجد أحدًا.

ووجدت نفسها في هذه اللحظة تتساءل في قلق: هل كان هذا حقيقيًا؟ أم أنها توهمت ذلك؟!

* * *

(٣)

ليس غريبًا أن تشعر الأنثى بأنها مراقبة! فالأنثى دائمًا محط الأنظار أينما حلّت، خاصة لو كانت شابة في السابعة والعشرين، بيضاء البشرة، شديدة سواد الشعر والعينين والأهداب، متوسطة القامة، رشيقة القوام، وتعمل بوظيفة محترمة بشركة محترمة، وتعيش بمفردها بعد رحيل والديها، واسمها (رحيل)!

– "أنت لا تفهمني! هذا الشعور بدأ يراودني مؤخرًا، لم أكن أشعر بهذا الأمر قبل أسبوعين مضيا!"

صمت (خالد غنيم) محاولًا تدبر الموقف، وهو يتعمد ألا يحدق في عينيها مباشرة – بالرغم من رغبته الشديدة في ذلك –، لكنه لاحظ حياءها من هذا التحديق المباشر.

كان يجلسان متقابلين حول طاولة صغيرة في ذلك المطعم الأنيق المجاور لمبنى الشركة التي يعملان بها، المكان حولهما منظم بشكل متناسق، الطاولات متراصة بعناية فائقة، والمسافات بينها مدروسة، الإضاءة أيضًا مناسبة للغاية، ليست ساطعة بشكل مؤذي للعين، ولا هي خافتة بشكل يعيق الرؤية، الهواء داخل المكان معطر بشكل لافت، وزاد من فوحه أنهم اضطروا لإغلاق النوافذ لمنع آشعة شمس الصيف الملتهبة من التسلل للداخل، كل شيء هنا نظيف ومنظم بشكل فاخر، ويفترض أن يكون كل شيء هنا مريحًا للأعصاب بشكل كبير!

لكن (رحيل) كانت لا تزال تشعر بتوتر وانقباض، وفكرة أنها تصرح بمخاوفها وهواجسها لرئيسها بالعمل تزيد من توترها وانقباضها، فهي ليست معتادة على ذلك، بل هي ليست معتادة على الجلوس رفقة رجل غريب في

مكان عام من الأساس.

(خالد غنيم) مدير تتمناه أي أنثى بالعالم، فهو لا يزال شابًا في العقد الرابع من العمر، ناجحًا في حياته العملية، وإن كان فاشلًا في حياته الشخصية، فزواجه لم يصمد أكثر من عامين، وانفصل عن زوجته تاركًا طفله الرضيع لها، ولم يفكر في تكرار التجربة بعدها.

هو شخص ودود ومجتهد، والأهم أنه لا يعامل مرءوسيه بغطرسة، ومعاملته لها كما هي سواء في الشركة، أم في المطعم الذي اعتادا أن يلتقيا فيه، وهي تتعمد أن تقلل مرات اللقاء حتى لا تلفت الأنظار.

بدأ اللقاء في هذا المطعم بينهما صدفة قبل عدة أشهر، كانت هي قد أنهت عملها ذات نهار، وغادرت الشركة، وكانت تشعر بالجوع، فرأت واجهة المطعم أمامها، فدخلت تتناول وجبة، وبمجرد ما شرعت في الأكل فوجئت به يقف أمامها ويقول مازحًا:-

- "لديك خصم ثلاثة أيام لأنك لم تقومي بدعوة مديرك ليأكل معك."

توترت بشدة من الموقف، وازداد توترها حين دعا نفسه للجلوس في مواجهتها وهو يحدق فيها بعينيه، ولم تستطع أن تنهي وجبتها لأنها لم تعتد أن تتشارك رجلًا غريبًا الطعام، بل إنها حتى وجدت صعوبة في مجاراته في الحديث، وكان هو ذكيًا بما يكفي لإدراك الأمر، فحاول أن يتلطف معها أولًا ليزيل عنها هذا التوتر، ثم قرر أن يتناول وجبته على طاولة أخرى بعد ذلك حين لم يجد للتلطف فائدة.

وفي اليوم التالي كانا معًا في العمل بشكل طبيعي، وكلاهما يتظاهر بأن الموقف كأن لم يكن، لكن (رحيل) ظلت تتساءل لفترة طويلة: هل تعمد أن يفاجئها في المطعم ليشاركها الغداء، أم أنها مجرد صدفة؟ وظل هذا التساؤل

يراودها حتى لمحته بعد عدة أيام يدلف إلى ذلك المطعم بعينه بمفرده، وهي تغادر الشركة عائدة إلى منزلها، فأقنعت نفسها بأنه مجرد موقف عابر.

لكن الموقف تكرر بعد عدة أسابيع، وبالطبع كانت المفاجأة أقل وطأة، فالمرات الأولى دائمًا هي الأصعب في كل شيء، والمرات التالية لا تكون بذات الصعوبة، وهذا التكرار تكرر بدوره مرارًا، حتى أصبح أمرًا اعتياديًا أن يلتقيا على فترات متباعدة في ذات المكان، ليتشاركا هذه الوجبة، وساعد على ذلك أن معاملته لم تتغير معها – أو مع غيرها – طيلة هذه الفترة.

بالنسبة لـ (رحيل): هي تنظر إليه دائمًا باعتباره مديرًا ودودًا، حاز على حب وثقة جميع مرءوسيه، فتحول إلى أخ أكبر بالنسبة لها، لكن بالنسبة لـ (خالد غنيم) تظل هي فتاة جميلة وذكية ومجتهدة في عملها، لكن الأهم من كل ذلك بالنسبة له: هل هي مرتبطة؟

ظاهر الأمر يقول: نعم، فهي تضع دبلة ذهبية في إحدى أصابع يدها اليمنى الرقيقة، وهذا يعني أنها مخطوبة، وهذا ليس بمستغرب على فتاة في مثل جمالها ورقتها، لكن (خالد غنيم) تفاجأ – من خلال نمنمة إحدى زميلاتها بالشركة – بأنها ليست مخطوبة، ولم تخطب حتى من قبل من الأساس، وأن الدبلة تخص أمها التي رحلت قبل عدة أعوام وتركتها وحيدة، وهي تحتفظ بالدبلة في أصابعها كنوع من الوفاء للذكرى لأمها، وربما هي محاولة منها لرد المتطفلين الذين يجذبهم جمالها الساحر الرقيق.

هي غير مرتبطة إذن، وهذا شيء مشجع جدًا لأي رجل، لا سيما لو كان مديرًا شابًا مطلّقًا مثل (خالد غنيم)!

بالطبع كان التساؤل الدائم لدى (رحيل): ما الذي يفكر فيه هذا المدير الشاب بشأنها؟ هي تعرف أن العلاقة بالأنثى – في نظر الرجال – تأخذ

وجوهًا عديدة يصعب حصرها، لكنها تعرف أيضًا أن الزواج هو آخر ما يفكرون فيه من بين كل هذه الوجوه في هذا الزمان!

(رحيل) بدأت العمل في هذه الشركة قبل عام ونصف العام، وهي مستريحة جدًا لهذه الوظيفة، خاصة أنها ليست محتاجة إلى العمل من الأساس، فوالدها قبل رحيله ترك لها ميراثًا لا بأس به، ووالدتها أيضًا رحلت بعده بسنوات وتركت لها إرثًا جيدًا هي الأخرى.

حياتها أشبه بروتين ثابت يتكرر باطراد، في الصباح تذهب إلى عملها، وتعود إلى شقتها بعد الساعة الرابعة، حيث تكون قد تناولت غداءها بالخارج، فتأوي إلى فراشها بعد أن تغتسل، وتنام ساعة أو ساعتين، وتفيق على الضوضاء التي تحدثها بنت خالها (أروى) التي تأتي لتبيت معها كل ليلة لتؤنس وحدتها، وفي المساء تقضي (رحيل) وقتها أمام شاشة التلفاز، وتتناول عشاء خفيفًا أثناء المشاهدة، أو أنها تقضي الوقت في تصفح بعض مواقع التواصل بعض الوقت دون أن تشارك إلا قليلًا، أو في الغالب تجلس خلف مكتبها وتمسك بالقلم وتكتب بعض الأشياء التي تخطر بذهنها، فلديها موهبة الكتابة، خاصة القصص القصيرة، لكنها لم تحاول نشر أي شيء قط، بل إنها حتى لم تخبر أحدًا بموهبتها هذه، كأنها تكتب لنفسها فحسب.

وحين تأتي ساعة النوم تأوي إلى سريرها مجددًا وتتناول رواية أو كتابًا وتشرع في القراءة فيه حتى تغيب في النعاس ويسقط الكتاب على وجهها، لتصحو في الصباح على صوت المنبه، وتتأهب للذهاب إلى العمل.

في أيام العطلات الأسبوعية ينكسر الروتين فتخرج لشراء بعض الأشياء والكتب وتقوم ببضع جولات في شوارع بعينها، وترتاد إحدى صالات الجيمانيزيوم مرتين أسبوعيًا، وتزور خالها لتقضي معه بعض الوقت، ثم تعود

إلى شقتها، وهذا كل شيء.

حياتها روتينية خاوية من أية مفاجآت، وهي تجتهد لكي لا تشعر بالوحدة، والهروب من أي ذكرى مؤلمة.

(خالد غنيم) استطاع – بعد كثير من الجهد والتلطف – أن يعرف القليل من ظروفها، فهي كتوم جدًا، وهو معجب بشدة من نمط حياتها، ويراها مثالًا للأنثى المستقلة التي لم يدفعها الاستقلال للانحراف، وإن كان في نفس الوقت يشعر بالإحباط لأنه لم يتمكن بعد من اختراق عزلتها، والحوائل التي تحيط نفسها بها، لكنه يزداد كل يوم عن الآخر انجذابًا إليها، فهي تملك الكثير من الصفات التي كان يتمناها فيما مضى، ولا يزال يتمسك ببقاياه.

في الفترة الأخيرة بدت (رحيل) مضطربة بعض الشيء، متوترة إلى حد ما، وكان يبحث عن فرصة ليستطلع سر هذا التوتر، ووجد هذه الفرصة في هذا النهار وهما يتشاركان الطعام، ليواجهها بما يحسه منها، فقالت له بشيء من التردد والارتباك:-

– "أشعر كأن أحدهم يراقبني!"

– "من تقصدين؟"

– "لا أعرف من بالتحديد، لكني أشعر به يلاحقني في كل مكان أذهب إليه، والليلة الماضية نظرت من النافذة فرأيت شخصًا ما يقف على الجهة المقابلة من الشارع، وينظر إلى نافذتي، لم أتبين ملامحه لأنه كان يقف في بقعة مظلمة، تراجعت إلى الداخل، وحين عدت مجددًا للنظر إليه لم أجده."

مممم! وصمت (خالد) برهة من الوقت ليقلب الأمر في ذهنه، ثم بدأ يصوغ نظريته للأمر بطريقة عملية، فقال:-

- "لدينا بعض الاحتمالات: الأول -وأرجو ألا يكون صحيحًا- أن يكون حبيبًا قديمًا يسوقه الحنين لرؤية حبيبته التي فقدها، ويبحث عن فرصة لإعادة حبل الود بينه وبينها."

أجفلت من الفكرة، وبدا في عينيها الجميلتين استنكارًا تامًا لها، وقالت بعد برهة:-

- "حبيب قديم! مؤكد أنه غير صحيح، لم يكن لديّ حبيب في أي يوم من الأيام، هذه حقيقة."

قال محاولًا تعديل الفكرة:-

- "ليس بالضرورة أن تكون العلاقة من الطرفين، ربما هو حبيب من طرفه هو فحسب، وأنت لم تمنحيه فرصة."

هزّت رأسها نفيًا، وقالت بإصرار:-

- "حتى هذا لم يحدث حسب علمي."

عاد يقول بمزيج من الإصرار والتلطف:-

- "ربما لم يحاول مصارحتك، ويبحث عن فرصة لذلك، أو ربما هو شخص يريد أن يتقدم لخطبتك، ويراقب سلوكك من بعيد ليطمئن، قبل أن يخطو هذه الخطوة."

تنفست بعمق، ثم قالت بطريقة عملية مماثلة:-

- "أستاذ (خالد)، لقد تقدم لخطبتي حتى الآن عشرات الأشخاص، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يوتر العلاقة بيني وبين خالي، رفضي الدائم لهؤلاء دون أن أحاول معرفة هويتهم من الأساس، فلو سرنا وراء هذا الاحتمال لكان هناك العشرات من المراقبين يسعون خلفي، لا أحسب أن الأمور تسير على هذا النحو في الحياة."

لكنه أظهر التمسك بفكرته، دون أن يستغرق في الجدال، فقال بذات اللهجة العملية:-

- "هذا لأنك لا تعرفين عن الرجال إلا القليل."

حاولت غلق النقاش في هذا الأمر، فقالت:-

- "ما الاحتمالات الأخرى؟"

- "هناك احتمال سيئ، وأتمنى من كل قلبي ألا يكون صحيحًا: أن يكون لصًا عرف أنك تعيشين بمفردك، وأنك تعملين بوظيفة جيدة، وتتقاضين دخلًا لا بأس به، فهو يتتبعك متربصًا ليعرف خطوط سيرك، ويعثر على الفرصة المناسبة للانقضاض."

كان هذا الاحتمال مخيفًا جدًا لها، والمشكلة أنها فكرت فيه قبل أن يخبرها هو، لهذا زادت من تأمين شقتها، وطلبت من (أروى) ألا تتأخر في القدوم للبيات معها، وتحرص أشد الحرص على ألا تسير في مناطق نائية، أو شوارع غير مطروقة، كما تحرص على مشاهدة مقاطع فيديو قتالية لتتعرف طرائق الدفاع عن نفسها وتنتقي منها ما يناسب أنوثتها، لكنها تظل خائفة من الفكرة بالرغم من ذلك.

وشعر (خالد) بهذا الخوف من جانبها، فقال لها مطمئنًا:-

- "كونه لم ينقضّ حتى الآن، هذا يعني أنه لا يملك هذه الجرأة، ثم إنه يظل احتمالًا ضعيفًا، فاللصوص لا يملكون هذا الصبر والانتظار."

أدركت ما يحاوله، لكنه لم يخفف من خوفها من الفكرة، وحاولت أن تتخلص من هذا الخوف والتفكير فيه، فقالت:-

- "هل توجد احتمالات أخرى؟"

هزّ كتفيه بغير معنى، ثم قال:-

- "احتمال ثالث، قد يبدو ضعيفًا في نظرك، لكنه قوي في نظري أنا: أن تكوني تتوهمين هذا كله، وهذا شعور طبيعي ناتج عن الوحدة والعزلة التي تعيشينها."

توقع أن تغضب أو تستنكر هذا الاحتمال، لكنه تفاجأ بها تقول:-

- "إنه الاحتمال الوحيد الذي أتمنى صحته حتى الآن، عن نفسي أفضل أن أكون متوهمة، على أن أكون مطاردة من شخص مجهول يسعى لإيذائي."

لكنه مال تجاهها متفحصًا، وأضاف بنبرة عميقة:-

- "إذن عليك التخلص من هذه الوحدة والعزلة، هذا سيحميك من جميع الاحتمالات المذكورة، هل تعرفين طريقة للخلاص؟"

- ".........................!"

***

كان كلام (خالد) واضحًا بالنسبة لها، إنه ينصحها بالارتباط، لا يهم بمن يكون هذا الارتباط، هو أم غيره، المهم أن تعثر عن شخص ما ينتشلها من الوحدة والعزلة، شخص ما تتكئ عليه، وتعتمد عليه في حمايتها ومشاركتها حياتها، شخص ما يخيف اللصوص والمعتدين من الاقتراب منها، حارس شخصي مجاني، لا تجد غضاضة من التصاقه بها في كل المواضع والأماكن.

المشكلة أن (خالد غنيم) لا يعلم عنها إلا القليل، وما يعلمه غير كافٍ أبدًا ليفهم سر نفورها من فكرة الارتباط، ما يعلمه الجميع أن والدها رحل وهي لا تزال طفلة في الخامسة من عمرها أو أقل، وظلت تحت رعاية والدتها لسنوات طويلة، وحين بلغت المرحلة الإعدادية تزوجت أمها من رجل آخر، ولحسن الحظ كان الرجل الآخر طيبًا ومتقبلًا وجودها معهما، خاصة أنه عقيم لا

ينجب، وبعد أن أنهت دراستها الجامعية فارقت أمها الحياة، لتجد نفسها وحيدة بلا أسرة، وكان عليها الاختيار بين أن تعود لتعيش مع خالها، أو أن تواصل حياتها بمفردها، ومالت للاختيار الثاني، وأقنعت خالها به بصعوبة شديدة، وكيّفت حياتها على هذا النسق.

لكن ما لا يعلمه (خالد غنيم)، ولا يعلمه إلا عدد قليل جدًا من الناس: أن رحيل أبيها لا يعني أنه مات، فلا أحد يعلم على الإطلاق إن كان ميتًا أم لا يزال على قيد الحياة، وقد عُدَّ ميتًا بحكم محكمة بعد سنوات عديدة من اختفائه، بعد أن فقد الجميع الأمل في العثور عليه، لكن لا أحد يعرف فعليًا ما إذا كان ميتًا أم لا يزال حيًا في مكان الآخر، وهو – على فرض حياته – لم يحاول قط العودة إلى أسرته، أو حتى السؤال عنها عن بعد.

كانت (رحيل) طفلة لم تتم الخامسة بعد من عمرها، ولا تزال تذكر ملامح والدها، وساعدتها الصور القليلة التي خلفها وراءها على تثبيت تلك الملامح في ذاكرتها ووجدانها، ولا تزال تذكر أيضًا ذلك الصخب الذي سمعته في غرفتها، حيث كان يتشاجر والداها بالخارج، وإن كانت لا تذكر تفاصيله جيدًا، فقط تذكر صوت الباب وهو يغلق بعنف، بعد أن غادر الوالد البيت مغضبًا، ولم يعد بعدها قط.

تذكر أنها وأمها انتظراه حتى اليوم التالي أن يعود، لكنه لم يعد، وتذكر أن رحلة البحث ابتدأت بعد اليوم التالي، واشترك فيه خالها وعدد من عائلة أمها، ثم التحق بهم أفراد من عائلة الأب وأصدقائه، وتذكر أن الشرطة تدخلت في الأمر، لكن لم يسفر هذا عن أي شيء، ولم يتم العثور على الأب ألبتة، ولا حتى عن أي أثر منه.

لقد اختفى تمامًا، كأنه فص ملح وذاب كما يقولون، اختفى دون أن يترك وراءه أي أثر يقود إليه مطلقًا.

مع الوقت كانت تكبر، وكانت تأمل أن يعود، وبدأت تتفهم المشكلة، فالوالد كان يخون الأم مع امرأة أخرى، هكذا اكتشفت الأم، وإن لم تستطع أن تتعرف هوية المرأة الأخرى، وكانت الاحتمالات والتفسيرات تطرأ كل يوم، وتتداخل وتتفارق، ثم يتبخر بعضها، ويتبقى البعض الآخر مشوشًا: ربما يكون مات، لكن الموت يترك وراءه جثة هامدة، فأين جثته؟ وتأتي بعض الاحتمالات التي تفسر الاحتمال الأول: ربما غرق في النيل وجرف التيار جثته بعيدًا، ربما غرق في البحر والتهمته القروش والحيتان، ربما قتله اللصوص الغادرون وألقوا جثته في الصحراء فالتهمتها الضباع والذئاب.

وحين ييئس المفكرون من دراسة هذا الاحتمال ينتقلون إلى احتمال آخر: ربما يكون غادر البلاد مع عشيقته إلى الخارج، لكن هل نسى أن لديه طفلة؟ ألم تدفعه الغريزة الأبوية في أي يوم من الأيام للاطمئنان عليها؟

فكروا في احتمالات أخرى كثيرة، وكل الاحتمالات واردة، لكن كل الاحتمالات منقوصة، وقابلة للتفنيد، وكان الرهان الوحيد الذي يتشبث به الجميع: أن يتذكر الأب أن له طفلة كان يحبها ويدللها أثناء وجوده معها، لكن هذا الاحتمال بدأ يضعف ويبهت مع مرور الأيام، وبدأ يحل محله سؤال: ما الذي يمنع أب من الاشتياق لطفلته سوى الموت؟ وإن كان بعض أفراد العائلة فكروا في إجابة أخرى: أن يكون قد رزق بأطفال آخرين أنسوه طفلته الأولى، هل هذا ممكن؟ البعض يراه ممكنًا في حالة بعض الرجال.

ما خرجت منه (رحيل) من هذه الذكرى المؤلمة: أن الرجال – أو أكثرهم – خائنون بطبيعتهم، وأنهم بإمكانهم التخلي عن زوجاتهم وأطفالهم بسهولة، وأن

لديهم القدرة على أن يواصلوا حياتهم دون أن يلتفتوا للماضي، حتى لو كان ذلك الماضي فيه أطفال من أصلابهم.

وما خرجت به (رحيل) من هذه التجربة المؤلمة: أن الرجال أوغاد حتى يثبت العكس، لذا ما أن ألمح (خالد غنيم) بفكرة الارتباط أمامها حتى شعرت بقشعريرة غريبة، فقد كان الارتباط برجل بالنسبة لها أشد رعبًا من وجود من يلاحقها بقصد إيذائها!

***

(٤)

ما الحياة؟ إنها أيام تتوالى دون توقف، كأن الزمن قد عقد حلفًا مع الريح، لا يعود إلى الوراء ولا يلتفت لما مرّ، هي أشبه بنهرٍ لا يعرف السكون، يجرفنا معه من مهد السؤال إلى مصبّ الحيرة، نتقلب فيها بين ضحكة لا نعرف مصدرها، ودمعة لا نجد لها تفسيرًا، وكلما ظننا أننا أمسَكنا بخيط من خيوط معناها، أفلتته الأيام من بين أيدينا كحلمٍ عند الصحو.

الحياة ليست أكثر من مشاهد قصيرة متتابعة، ينسجها الوقت بخيوطٍ من الاعتياد والدهشة، من الفقد والميلاد، من الحب والخيبة، حتى نغدو نحن أنفسنا سؤالًا معلقًا على جدار الكون: من نحن وسط هذا الجريان الأبدي؟

الحياة لا تلتف ولا تعود للوراء، هذه حقيقة، نحن من يلتفت، وقلوبنا تنتمي دومًا للماضي، لكن المشكلة أننا لا نستطيع أن نسير عكس مسار الزمن، لذا لا نملك إلا أن نلتفت ونحن نمضي مع الأيام إلى الأمام.

(رحيل) لا تستطيع أن تتجاوز حدث اختفاء والدها دون أثر، ولا تستطيع كذلك أن تتخلص من أشباح الماضي، لكنها مرغمة على أن تواصل حياتها على النحو الذي يرضي طموحاتها، إنها تعمل بوظيفة جيدة، وجميع رؤسائها وزملائها معجبون بأدائها وطريقتها في العمل، ويمنحونها الثقة والدعم طوال الوقت، حتى أنهم يسندون إليها أحيانًا مهامًا تفوق مسئوليات وظيفتها، منذ أيام طلب منها (خالد غنيم) أن تقوم بأحد أدوار مسئول الموارد البشرية (HR)، فالشركة كانت بحاجة إلى موظفين جدد، وعلى أحدهم أن ينتقي من هؤلاء المتقدمين من يصلح للوظائف المطلوبة، قال لها بثقة شديدة:-

- "كل ما عليك أن تعقدي المقابلات مع المتقدمين، وتتفحصي أوراقهم، وتختبرينهم بطريقتك ذكية، ومن ينل قناعتك منهم كل ما عليك أن تضعي أمام اسمه علامة (√)، هذا كل شيء، ونحن سنتكفل بالباقي."

كانت تعلم أنه عرض سخي جدًا، فمثل هذا الدور لا يمكنهم منحه إلا لموظف ذي شأن كبير، يثقون به وبرؤيته تمام الثقة، ومع ذلك أحست بالفزع من الأمر، وحاولت أن تتملص، لكن (خالد غنيم) قال لها مشجعًا:-

- "الأمر ليس بهذه الصعوبة، لن تزيد أية مقابلة عن ١٠ دقائق على أقصى تقدير، وسوف يكون (مجدي) معك، هو الذي سينسق ويرتب المقابلات، لكن ستكونين أنت المسئولة العليا، وبعد ذلك سيأتي دوري أنا لتضييق دائرة الاختيارات."

لكنها لم تجد هذا الأمر مشجعًا، وقالت بارتباك:-

- "لماذا أنا؟ يمكنك أن تسند هذا الـ....."

قاطعها برفق وتؤدة:-

- "لأني أثق بذكائك، وبرؤيتك أنت أكثر من أي أحد آخر هنا."

يفترض أن هذه العبارة تشعرها بالسعادة والثقة، لكن كان لها تأثير مغاير، فقد بدا لها (خالد غنيم) يتحدث كما لو كان رجلًا يتودد إليها، لا كمدير يمنحها الدعم والثقة، قد أزعجها هذا كثيرًا إلى حد الذعر.

لكن أكثر ما كان يزعج (رحيل) في هذه المهمة التي يريد تكليفها بها: أنها ستكون مسئولة عن مصائر هؤلاء المتقدمين، وبجرة قلم منها ستمنح بعضهم فرصة، وتحرم الآخرين تلك الفرصة، هذا أمر مفزع بشدة، ولا تتصور أن ضميرها قد يتحمل مثل هذه القرارات، وهذا ما حاولت أن تنقله لمديرها المتزلف لكنه لا يريد أن يمنحها الفرصة لتعبر عنه جيدًا.

- "الأمر ليس بهذه الصعوبة صدقيني، كل ما عليك: أن تنظري في الأوراق، وتطرحين على المتقدم بعض الأسئلة حول مؤهلاته ومهاراته، ومن ترين أنه يملك المؤهلات والمهارات المناسبة هو الذي سيقع عليه الاختيار، والعدد لن يكون كبيرًا بالمناسبة، حوالي ٣٠٠ متقدم، أو يزيدون قليلًا، ويمكنك إنجاز الأمر في يوم واحد من العمل، وسأوصي بمنحك الأجر المناسب فوق راتبك من أجل هذه المهمة."

بالطبع هذه فرصة يتمناها أي شخص في هذه الشركة، ومع ذلك ظلت (رحيل) منزعجة من الأمر، وتبحث عن فرصة للخلاص، لكن مديرها المتزلف لم يمنحها أية فرصة للخلاص، واضطرت في النهاية لقبول المهمة.

كانت تعرف بذكائها ما سوف تفعله، سوف تجلس خلف المكتب بوقار وثبات، وتضع على وجهها قناعًا جامدًا وجادًا وخاليًا من المشاعر، وسوف تتحدث بطريقة آلية جافة، وتمنح السيطرة لعقلها وحاستها فحسب، وتلغي دور قلبها ومشاعرها تمامًا، وسوف تنظر في أوراق كل متقدم، وتطرح عليه بعض الأسئلة من وحي هذه الأوراق، وتنصت لإجاباته، وبعد ذلك ستلقي بالمسئولية كلها على المتقدم ذاته، وعلى قدرته على إقناعها بأهليته لنيل هذه الوظيفة التي تقدم لها، هذا كل شيء.

وهكذا سار الأمر كما خططت له، كانت في أول الأمر متوترة للغاية، لكنها مع الوقت اكتسبت الثبات والثقة، واستطاعت أن تحكم سيطرتها على المهمة بشكل جيد، وجميع المقابلات خضعت لسيطرتها كاملة، عدا مقابلة واحدة أثرت فيها نفسيًا أكثر من أية مقابلة أخرى.

كان المتقدم اسمه (حسين)، سنه يقترب من الأربعين، ومؤهله لا يناسب أيًا من الوظائف المطروحة، كما أنه لم يقدم أي شيء يدل على مهاراته، وبدا

أمامها شخصًا يائسًا يقوم بمحاولة يائسة يعرف مسبقًا أنها لن تفلح، لدرجة أنها تعاطفت معه، وحاولت أن تمنحه شيئًا من الثقة، إلا أنه بدا متمسكًا باليأس بدرجة مفزعة.

حاولت أن تمنحه مجالًا ليعبر عن نفسه، طلبت منه أن يتحدث عن مهاراته، أو يمنحها شيئًا يجعلها تقتنع به وتوصي بقبوله، فقالت له:-

- "ليس لديك أية مهارات! كيف تطمع في نيل هذه الوظيفة إذن؟"

رد بنبرة غريبة تمتزج فيها الشجاعة باليأس:-

- "أنتم نشرتم إعلانًا تطلبون فيه موظفين دون أن تحددوا تخصصات بعينها، ومؤهلي الدراسي ربما يكون مناسبًا، لهذا جئت إليكم، وهذا كل ما أملكه: المؤهل الدراسي والأمل!"

وأضاف بذات النبرة:-

- "هذا محبط، لكني حقًا لا أملك أي شيء زيادة على المؤهل الدراسي والأمل، ولا أعرف كيف أظهر لكم كفاءة لا أمتلكها كي أنال إعجابكم! ليس أمامي خيار سوى قول الحقيقة، والرهان عليها!"

لم تملك أمام نبرته وكلماته إلا أن تقول له بنبرة جامدة:-

- "للأسف.. الأمور هنا لا تدار بهذه الطريقة، ولا في الحياة عمومًا!"

فسألها مباشرة:-

- "هل يعني هذا أني مرفوض؟"

ردت بذات النبرة الجامدة:-

- "أنت من تقودنا إلى هذا الخيار بكل أسف."

لم تكن مستريحة لهذا القول، لكنه لم يترك لها خيارًا، وشرعت تعيد أوراقه داخل المغلف البلاستيكي، ثم مدت يدها به تجاهه كي يتناوله منها، وبالطبع

كانت هذه إشارة واضحة إلى انتهاء المقابلة، وظهور النتيجة مبكرًا للغاية!

تناول منها الأوراق بالفعل وهو يقول:-

- "كنت أحسب أني متقدم لوظيفة، لا إلى خطبة عروس، ماذا يعنيكم من مهاراتي في وظيفة مكتبية؟"

تفاجأت بعبارته، لكنها لم تشعر بالإهانة، بل على العكس أحست بكثير من التعاطف معه، فقالت له وهو يوليها ظهره لينصرف:-

- "صدقني لو أنك كنت تقدمت لخطبتي بهذه الطريقة لقبلت.."

لماذا قالت له هذه العبارة؟ هل هو التعاطف؟ لو كان كذلك فهو يمثل ضعفًا من جانبها، وربما أسوأ: فقدان السيطرة.

تسمر هو في مكانه حين سمع تلك العبارة، وعاد يلتفت إليها بصمت، فحاولت أن تخفي ارتباكها، وتقول بنبرة ثابتة:-

- "أنت لا تعرف كم هو صعب على الأنثى في بلادنا أن تعثر على رجل لا يتظاهر بأنه الأفضل، أو أنه يعرف كل شيء!"

ظل ينظر إليها بصمت برهة من الوقت، لكنه انتبه في هذه اللحظة إلى الدبلة الذهبية التي تحيط بإحدى أصابع يدها اليمنى، لتوحي للآخرين أنها مخطوبة، وقال بعد هنيهة:-

- "إما أنك عثرتِ عليه بالفعل، أو أنك تنازلتِ عن هذا الخيار.."

ثم أضاف وهو يستدير مجددًا لمغادرة المكتب:-

- "لكنه -على أية حال- أفضل رفض حظيت به في حياتي.. شكرًا لك!"

شعرت بارتياح شديد لمغادرته، فقد كادت أن تفقد السيطرة، لكنها توقفت طويلًا أمام اسمه في القائمة، يفترض أن تضع الآن علامة أمام هذا الاسم، وهذه العلامة لن تخرج عن حالين: (√) أو (X)، لكنها تحيرت كثيرًا وتجمدت

أصابعها عن وضع أي شيء، حتى سألها زميلها (مجدي):-

- "هل أنادي على المتقدم التالي؟"

ظلت تنظر إلى الاسم في حيرة وتردد بعض بضع لحظات، ثم قالت:-

- "نعم."

وأغمضت عينيها وهي تضع علامة ما في ذلك الموضع، وكأنها لا تريد أن تراها أو تعرف عنها شيئًا.

***

(رحيل) تعرف هذا الشعور بأنها مطاردة، تعرفه منذ أن فقدت الأب بين عشية وضحاها ولم يعرف له أحد طريقًا، منذ ذلك الحين وهي تعيش في الحاضر، لكن قدميها تغوصان في وحل الماضي، وتسقط وتتعثر، وكلما حاولت أن تنسى، عادت الذكريات تتسلل من ثقوب الزمن كأشباح تعرف طريقها جيدًا إلى قلبها.. لم تكن تلاحقها أصوات أو وجوه، بل كانت تطاردها مشاهد باهتة من طفولة تعسة، تتكرر ككابوس معتاد، بملامح لا تُنسى رغم محاولات الطمس والنسيان.

تلك الطفلة التعسة التي سمعت أباها وأمها وهما يتعاركان، ثم سمعت صوت خطوات الأب وهو يغادر البيت ساخطًا، ويغمغم بكلمات غير مفهومة ولم يعد بعدها.. تلك الطفلة التعسة لا تزال بداخلها لم تكبر، لا تزال ترتجف خلف الباب، تصمت حين يُفترض أن تصرخ، وتضحك حين يُفترض أن تبكي، فقط كي يمر اليوم بسلام.

وها هي اليوم، امرأة شابة ناضجة تحمل جسدًا راشدًا، لكن عينيها تفضحان سذاجة الخوف القديم، وارتباك تلك السنوات التي تُركت فيها وحيدة أمام قسوة لا ترحم.

إنها تعرفه جيدًا شعور الشخص المطارَد، وتشعر به الآن وهي عائدة إلى بيتها وتسمع وقع تلك الأقدام التي تلاحقها، ويمتزج بصوت نبضها المتسارع وهو تهرول في مشيتها مخافة أن يدركها ذلك الشخص الذي يطاردها بإلحاح، ولا تدري من يكون، ولا أي شيء يريد منها.

ظلت تهرول بخطوات أقرب إلى الركض، الظلام يغلف كل شيء أمامها وحولها، حتى مصابيح الإنارة الساطعة عاجزة عن التغلب على هذا الظلام، شعرت بالندم لأنها تأخرت في العودة إلى بيتها حتى هذا الوقت، وشعرت بالندم أكثر لأنها لم تتابع عملية إصلاح سيارتها وتلح على سرعة الانتهاء منها، مما اضطرها للخروج سيرًا على الأقدام، لتجد نفسها ملاحقة من شخص مجهول، يتبعها بإلحاح مرعب ومريب، في زوايا هذا الليل الدامس، حيث يتهامس الضوء الشاحب مع الظلال الداكنة في شوارع وممرات ذلك الحي الصامت، ولا تملك إلا أن تبادر بالفرار علها تنجو من ذلك المطارد الغامض.

أنفاسها اللاهثة تتواءم مع نبضها المتسارع، كأن الأرض نفسها ترتجف تحت وقع أقدامها، كانت تشعر به خلفها.. ذاك الحضور الخفي الذي يلاحقها كظلٍ لا تعرف له ملامح، يتسلل خلفها بصمتٍ مريب، وبالرغم من بعد المسافة بينهما كانت لا تزال تسمع صوت خطواته، وصدى أنفاسه.

قلبها يرتجف على نحو لا يُكذّب، وحواسها مشدودة كما لو أنها على حافة حلم مزعج لا يقبل الاستفاقة، فكرت أن تصرخ.. تصرخ.. تستغيث بأي شخص عابر لعله ينقذها، لكنها عاجزة عن فعل ذلك بالرغم من هذا الخوف الهائل الذي يهيمن عليها.

إنها تشعر به، وتسمع وقع خطواته، وصدى أنفاسه اللاهثة، لكنها لا تراه، لا يمكن أن تكون متوهمة، إنها واثقة من أنه خلفها، يلاحقها بإلحاح، كلما

نظرت خلفها، لم ترَ سوى الفراغ، وكلما أسرعت في خطاها، شعرت أنه يزيد اقترابًا منها.

الرغبة في الهروب تتصارع داخلها مع فضولٍ جامح لمعرفة من هو؟ من يكون هذا الذي يطاردها، ولماذا؟ أيعقل أن يكون وهمًا من وحي الخيال، أم أن هناك عينًا حقيقية لا تغمض، تترصدها في يقظتها ونومها؟ عيناها كانتا تمتلئان بالقلق، وجسدها يرتجف لكن ليس بسبب برد الشتاء، بينما عقلها يحاول أن يجد تفسيرًا لما يحدث، ولكن بلا جدوى، ولا تملك أن تركض.

الرعب في داخلها يمشي جنبًا إلى جنب مع الفضول، يغلفها مثل عباءة ضيقة تخنق أنفاسها، لكنها لا تجرؤ على نزعها، تساءلت مرارًا إن كان هذا المطارد يعرف أسرارها، يقرأ رسائلها، يتبع تفاصيل حياتها دون أن تدري، وإن كان يبتسم كلما شعرت بالخوف، أو يختبئ كلما حاولت المواجهة.

شعور غريب ومتناقض، كأن جزءًا منها يُراقَب باستمرار، وكأنها صارت بطلة في قصة لا تعرف كيف كتبت، ولا بأي نهاية ستُختتم، وشيء ما بداخلها يدعوها للتوقف والالتفات للخلف لرؤية ذلك المطارد المجهول، وشعور آخر يدفعها دفعًا لأن تواصل الفرار، كأنها حرب صامتة، لا بين قاتل وضحية، بل بين الخوف والفضول... وبينها وبين ذاتها.

لكنها فجأة توقفت.. ذلك الصوت.. ذلك النداء المباغت جعلها تتوقف في مكانها وهي ترتعد.. إنه هو، هو.. يناديها باسمها.. نعم هو..

- "(رحيل) توقفي.. إنه أنا.."

أنا؟! من هو "أنا"؟! من يكون؟ ذلك الصوت الغريب!!

- "(رحيل).. لا تخافي.. هذا أنا.."

للمرة الثانية يذكر الـ "أنا" التي لا تعلمها، لكنها توقفت، بل تسمرت، وبصعوبة شديدة أرغمت جسدها على الالتفات للخلف، في ذلك الشارع الصامت الضيق، الشبيه بالزقاق، والذي يؤدي مباشرة إلى الشارع الآخر الواسع الذي تسكنه.

في هذا الزقاق الضيق الذي يلقي الظلام بظلاله الداكنة على جزء منه، بينما انتزعت مصابيح الإنارة سيطرتها على الجزء الآخر، وكانت هي تقف في الجزء المضيء، بينما مطاردها المجهول الذي يناديها الآن يقف في الجزء المعتم، لذا لم تتمكن من رؤية ملامحه بالرغم من أنها تمكنت من الاستدارة بكاملة جسدها إليه بعد عناء وجهد.

- "من.. من أنت..؟!"

قالتها بصوت مرتعد، يملؤه الخوف والفضول معًا.. وعيناها تراقبانه وهو يقترب ويغادر منطقة الظلام ببطء، وأتاها صوته الغريب العميق كأنه قادم من أعماق بئر:-

- "ألم تعرفيني بعد؟ هل نسيت صوتي؟"

وظل يقترب ويقترب من حافة الظلام إلى بقعة الضوء، وهي تترقب في وجل ولهفة، وأنفاسها تتسارع أكثر وأكثر..

- "إنه أنا.."

وبلغت قدماه أخيرًا بقعة الضوء، وأطل وجهه فجأة كأنه يقف على خشبة مسرح، وانزاح من أمامه الستار، وكانت الصدمة التي لم تتوقعها (رحيل)، ولم تتخيلها في أحلامها ولا حتى في كوابيسها.. بينما صوت ذلك الصوت الغائر يستطرد في تؤدة:-

- "أنا.. والدك.."

وتفجرت من تلك الملامح التي كانت تحفظها عن ظهر قلب قذائف من الضوء كأنه انفجار النجوم الذي نشأ منه هذا العالم، ودارت الأرض تحت قدميها بسرعة رهيبة، ورأت نفسها تلتحم بالنجوم، ثم تهوي من علٍ إلى مكان سحيق..

ومن بين ذلك الدوار تبينت تلك الملامح الغائبة: إنه هو.. هو.. نعم هو.. تلك الملامح التي لا تزال ذاكرتها تتشبث بها بإلحاح، وساعدتها الصور الفوتوغرافية القليلة التي تحتفظ بها على التشبث، لكن الغريب أنه لا يزال شابًا كما كان يوم رحل، كيف يمكن هذا أن يكون؟

ويتسارع دوران الأرض حول قدميها، وتتساقط النجوم من حولها على هيئة شظايا محترقة، قبل أن يحل الظلام الدامس.

***

(٥)

كانت الشمس تميل نحو الغروب، تلون السماء بألوانٍ دافئة تشبه ضحكة هذه الطفلة صغيرة التي تركض على العشب، بعد أن أفلتت من يد والدها الحنون، وهو ينادي برفق:-

- "(رحيل) لا تبتعدي.."

توقفت على الفور، لكنها رفعت ذراعيها عاليًا نحو السماء، وأخذت تدور حول نفسها في دوائر لا تنتهي، وقد أغمضت عينيها كي لا تشعر بالدوار، حتى سقطت على الأرض، لكنها ظلت تضحك في براءة، وكانت ضحكتها تملأ المكان كأنها موسيقى لا تعرف الحزن، حتى أقبل والدها عليها وانحني ليحملها بين يديه ويرفعها عاليًا في الهواء، فصرخت في ابتهاج:-

- "أنا أطير! بابا.. أنا أطير!"

وبعد لحظات أنزلها على الأرض، وجلس بجوارها، وهو ينظر إليها بحب وحنوّ، وقامت هي تحتضنه، وأخذت تتأمل وجهه بعينيها الواسعتين، ثم سألت ببراءة:-

- "بابا، لمَ السماء زرقاء؟"

ضحك، ثم أجاب:-

- "لتشبه لون فستانك الأزرق الجديد، إنها تغار منك.."

ضحكت بدورها، ثم قالت:-

- "السماء جميلة، لا تغار."

أجاب ضاحكًا:-

- "لكنها ليست أجمل منك."

صمتت قليلًا ثم قالت:-

- "لم يظهر القمر فقط بالليل؟ هل يخاف من الشمس؟"

هزّ رأسه ومدّ يده ليربت على شعرها بدفء، وقال:-

- "بل لأنه يحب أن ينام كثيرًا بالنهار مثلك، أيتها الكسول."

ضحكت وعانقته مجددًا، وقالت دون مناسبة:-

- "أنا أحبك يا بابا.."

كانت تبتسم وتغمض عينيها الجميلتين، كأنها تريد أن توقف الزمن على هذه اللحظة لا يتخطاها، أو كأنها تريد أن تختزل مساحة العالم كله في هذه السنتيمترات القليلة الآمنة بين ذراعيه.

أجابها وهو يضمها بقوة إلى صدره:-

- "وأنا أيضًا أحبك يا ابنتي.."

***

هل كان هذا حلمًا؟ تساءلت (رحيل) في حيرة، أم أنها ذكرى صاغها عقلها الباطن ليلهيها عن الماضي التعس الذي حرمها وجود الأب، إنها تذكر الحدث بوضوح شديد كما لو كان وقع حقيقة، لكنها باتت تشك في كل شيء.

إنه واحد من المشاهد القليلة التي لا تزال تذكرها مع والدها من طفولتها المسلوبة، تلك الطفولة التي ظلت بعدها تحاول أن تعيش، أن تضحك، أن تحب، لكن شيئًا ما يشدها إلى الخلف في كل مرة، كأن طفلتها الجريحة تمسك بطرف ثوبها، تبكي في صمت، وترجوها ألا تنسى.

ذكريات الفقد والرحيل المباغت ظلت تطاردها لا بهيئتها القديمة فقط، بل بأثرها في صوتها المرتعش، في نظرتها القلقة، في علاقاتها الناقصة، وفي كل مرة تتلعثم فيها دون سبب واضح.

كانت مطاردة داخلية خفية، تنفجر في الليل عندما تسكن الأصوات، أو في لحظة فرح تبدو بريئة لكنها تجرحها دون قصد، لقد أمضت كل تلك السنين سجينة ذكريات لم تخترها، تُعيد تشكيلها كل يوم، وتنسج منها سجنًا ناعم الأبواب، خفيف الجدران، لكنه لا يُفتح... ولا يُنسى.

إنه هو.. هو.. بعينه.. لم يتغير منه شيء بالرغم من مرور كل تلك السنين، كيف يمكن لهذا أن يكون؟

استفاقت وهي تشعر بالدوار لا تزال، وشيء كالضباب يغلف نظراتها لما حولها، وجدت نفسها تجلس على حافة الطريق، وهو بجانبها يسندها، ويضغط على كتفها كأنه يمنحها الأمان، لكنها انتفضت بهلع، ونظرت إليه بذعر وهي تحاول أن تتيقن مما تراه.

- "اهدئي يا ابنتي، من فضلك، اهدئي وسأشرح لك كل شيء.."

ثم استطرد وهو يمسك بيدها الرقيقة ويضغط عليها برفق:-

- "أنا أتمرن على هذا اللقاء منذ أكثر منذ عدة أشهر، لا تصعبي عليّ الأمر أكثر من ذلك، وامنحيني الفرصة لأشرح لك ما حدث.."

كانت لا تزال تتفرس في ملامحه وهي ترتجف وتلهث، إنه هو بالفعل، ذات الملامح، لكنه لا يزال شابًا، كيف هذا؟ هل يعقل أن يكون حلمًا وسوف تفيق منه في أية لحظة؟ هل هذا ممكن..؟

- "انهضي معي، لنجلس في مكان هادئ، ونشرب شيئًا يساعدنا على التماسك والاسترخاء.. هيا معي.."

وحاول أن يرفعها لتنهض لكنها كانت عاجزة عن القيام، ولا تزال ترتجف في توتر واضطراب، وتحاول أن تستجمع شتات تركيزها وعقلها.

حاول أن يطمئنها أكثر:-

- "(رحيل) هذا أنا، والدك حقيقة.. لقد عدت إليك.. وسأظل بجانبك، ولن أتركك مرة أخرى أبدًا مهما حدث.."

عاد مرة أخرى ليساعدها على النهوض، وهذه المرة نهضت بالفعل بتثاقل، وسارت معه بخطوات مضطربة متعثرة، لكنها لم تكن تنظر إلى شيء إلا إليه، كأنها تريد أن تتيقن من أنه هو بالفعل ليس شخصًا آخر..

سارا متجاورين وهو يحيط بها بذراعه، ويمسك بكفها بيده الأخرى، وهي لا تزال ترتجف، وقال لها بتردد:-

- "أعلم أن ما أقوله سيكون غريبًا، وغير مفهوم، لكنها الحقيقة أقسم لك، أنا لم أتركك باختياري، لقد حدث الأمر بطريقة غريبة لا زلت لا أفهمها، لكنه حدث على أية حال، وقد استغرقت وقتًا طويلًا لأستوعب ما حدث، واستغرقت وقتًا أطول في البحث عنك، وكذلك استغرقت وقتًا طويلًا أبحث عن اللحظة المناسبة لأقابلك، وأخيرًا جاءت هذه اللحظة، وإن كنت لا أدري كيف أغتنمها، وأخبرك بالحقيقة..!"

كانت تستمع إليه وتحاول بصعوبة استيعاب كلماته، وفي نفس الوقت تحاول أن تتذكر طريقته في الحديث في الماضي البعيد، وهل هي ذاتها طريقته التي يتحدث بها الآن أم أن شيئًا تغير؟ تحاول أن تقارن صوته الذي تسمعه الآن بذلك الصوت الذي سمعته في طفولتها، لكنها ليست واثقة من أي شيء على الإطلاق.

بعد دقائق وجدت نفسها تجلس في ركن منعزل بأحد المقاهي، وأمامها فنجان من القهوة الساخنة يتصاعد منه البخار، وهو يجلس في مواجهتها وبين يديه فنجان مماثل، وكان ينظر إليها بثبات ويتحدث بنبرة متوترة يحاول أن يجعلها هادئة ومتماسكة.

لا تزال ترتجف، ورأسها مثقل كأنه يحمل حجارة، والصداع يعصف بها كعاصفة صامتة لا ترحم، فيما الدوار يسحب الأرض من تحت قدميها رويدًا رويدًا، عيناها شاحبتان، لا تبحثان عن شيء بل تغوصان في متاهة داخلية موحشة.

– "سأحكي لك ما حدث، لكن من فضلك لا تصعبي الأمر عليّ أكثر.. ما تعرفونه أنتم أني رحلت فجأة، وتغيبت دون أن أترك أثرًا، أعرف أنكم بحثتم عني طويلًا دون جدوى، وأعرف أنكم لم تتمكنوا من العثور على أي دليل يشير إلى حياتي أو حتى موتي، وفي الغالب اعتقدتم أني رحلت مع امرأة أخرى، هكذا كانت والدتك تعتقد قبل ذهابي، أني زوج خائن.. لكن أقسم لك أن هذا غير حقيقي بالمرة.."

كانت الأفكار تحاصرها، تتكاثر كظلال قاتمة حولها، تهمس وتصرخ وتلوّح لها بالأسوأ، وكلما حاولت أن تتنفس، شعرت أن الهواء ضيق، وأن قلبها يرتجف كعصفور صغير حُشر بين قضبان الهاجس والضياع.

كانت تستمع إليه بصمت وقد استعادت الكثير من تركيزها إلا أنها لا تزال ترتجف وتلهث وتشعر ببرودة غريبة، فأمسكت بفنجان القهوة بين يديها لتتدفأ به دون أن تقربه من فمها. استطرد قائلًا:–

– "ما حدث: أني غادرت البيت مثلما أغادر كل مرة، وكنت غاضبًا، الفترة الأخيرة لي هناك كانت مشحونة بالخلافات والشجار والاتهامات، خرجت غاضبًا، وكل ما كنت أفكر فيه أن أخلو بنفسي في مكان بعيد منعزل، وأن أدخن سيجارة وأفرغ انفعالاتي على هيئة دخان.. لا أدري كم مرّ عليّ من الوقت حتى عثرت على ذلك المكان الهادئ المنعزل، وجلست وحدي أنفث الدخان ببطء، وأنا أفكر فيما ينبغي أن أفعله مع والدتك، وكيف أغادر ذلك

النفق المظلم الذي وصلت إليها حياتنا.. وصدقيني يا ابنتي، كان أهم شيء يشغل تفكيري في تلك اللحظة هو أنتِ.."

ارتعشت أكثر وهي تنصت للعبارة الأخيرة، كأن هذه العبارة جذبتها إلى هامش الوجود، يداها لا تزال تمسك بفنجان القهوة الساخن وهما ترتجفان، ورأسها لا يزال يئن تحت وطأة الصداع الحاد، كأن طنينًا خفيًا يقرع جمجمتها بإلحاحٍ لا يرحم.. وهو يستطرد:-

- "بينما أنا مستغرق في أفكاري إذ سمعت صرخة امرأة من مكان قريب، التفتُّ على الفور لكني لم أر شيئًا، كنت واثقًا من أني سمعت تلك الصرخة، مثلما أنا واثق من جلوسي معك الآن، شعرت بالقلق، أو ربما بالخوف، لقد كان الصوت قريبًا مني، وبعد لحظات استجمعت شجاعتي وقررت أن أنهض وأبحث عن مصدر الصوت، وتحركت تجاه المكان الذي ظننت أن الصوت قد أتي منه، وفجأة..."

وصمت برهة وهو ينظر إليها، وقد اتسعت عيناه بتوتر، ثم أضاف بصوت مرتعد:-

- "وفجأة شعرت كما لو أن تيارًا كهربيًا صعقني، وأظلمت الدنيا من حولي، ولا شك أني غبت عن الوعي، لكني أفقت بعد قليل، ووجدتني ملقى على الأرض والناس من حولي يحاولون إفاقتي، وسمعت أحدهم يحكي لمن حوله قائلًا: لقد ظهر أمامنا فجأة.. كذا قال، وأنا غير مستوعب حديثه، المهم أني نهضت فوجدت كل شيء مختلف من حولي عما كان، البنايات، الطرقات، السيارات، حتى الناس، كل شيء مختلف.."

وصمت مرة أخرى وازدادت عيناه اتساعًا، وارتجفت شفتاه بشكل ملحوظ، قبل أن يواصل:-

- "ما أعرفه أني غادرت البيت يوم الأربعاء السادس من أبريل سنة ٢٠٠٥، لأجد نفسي فجأة في غضون لحظات قد صرت في نفس اليوم من شهر أبريل عام ٢٠٢٥!!"

ولهث وهو يردف:-

- "أعرف أن ما أقوله غريب جدًا، بل... لا يصدق، ولا ألومك لو أنك لم تصدقيني، فأنا نفسي استغرقت فترة طويلة وأنا أحاول أن أستوعب وأن أصدق، لكنها الحقيقة يا ابنتي، أقسم لك.. لا أعرف كيف حدث هذا، وكيف يمكن أن.... يكون.... لكنها الحقيقة، أقسم لك.. لهذا لم تتمكنوا من العثور عليّ في أي مكان، لأني لم أمت، وكذلك لم أكن أحيا بأي موضع آخر، لقد قفزت عبر الزمن عشرين عامًا مرة واحدة!!"

كانت تنظر إليه جاحظة العينين، مرتعدة الأوصال، وهي لا تصدق ما تسمعه، أفكارها تتزاحم وتتشابك كأغصان يابسة في مهب ريح عاصفة، وهاجسٌ مظلم يجثم فوق صدرها كغراب لا يشبع من النعيق، والتجم لسانها فأصبح عاجزًا عن النطق كليًّا.

قال لها وهو يدني وجهه منها:-

- "أنا لا أملك دليلًا واحدًا على ما أقول، لكن أنظري إليّ.. انظري إلى وجهي وهيئتي، هل أبدو لك كرجل قارب الستين من العمر؟!"

وانتفض جسدها أكثر، ولم تشعر إلا وفنجان القهوة الساخن ينسكب على الطاولة بينهما، مثلما انسكبت كلماته في أعماق روحها.

***

الفصل الثاني

أَلْـــوَان

(١)

قال لي وهو يرتعش كجدة عجوز بلغت أرذل العمر:-

- "لم يعد باستطاعتي أن أتحمل أكثر، إما أن أقتله، أو أن أقتل نفسي، لا سبيل أمامي سوى هذا!"

وظل يرتعش، حتى أني لأكاد أسمع ضربات قلبه بأذنيّ!

هو شاب، أكبر مني ببضع سنوات، أعتقد أن عمره بضع وثلاثون عامًا، لكنه لم يتزوج بعد، أسمر البشرة، ضيق العينين، ملامحه لا بأس بها، ربما ينقصه فقط الاعتناء بنفسه لتكون وسامته ملحوظة، نحيل إلى حد ما، متوسط الطول، يمكنك القول إنه شاب عادي تمامًا يمكنك أن ترى حولك الآلاف – بل الملايين مثله – وليس فيه أي شيء يلفت النظر.

لماذا اختارني أنا بالذات ليخبرني بهذا؟ يقول إنه راسلني بضع مرات على حساباتي المختلفة، لكني لا أذكر أني قرأت شيئًا قريبًا مما يحكي عنه، الأدهى أنه جاء يخبرني بهذا وجهًا لوجه!

لكن عمّن يتحدث؟ ظل يرتعد كجدة عجوز، واغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول:-

- "إنه (رمزي طارق)، يريد أن يدمر حياتي، بل يريد أن يدمر حياة جميع أصدقائي، (هشام)، و(مروان)، و..... الجميع.. لا سبيل أمامي سوى أن أقتله وأنقذ الجميع".

(رمزي طارق)؟ من يكون (رمزي طارق)؟ اسم غير موسيقي، وغير متناسق، لكني مع ذلك أعتقد أنه مألوف لي، كأني سمعته من قبل!

- "من (رمزي طارق)؟ ولماذا يريد أن ....؟"

قاطعني في انفعال:-

- "إنه شيطان، شيطان يعرف ما يريد، يريد أن ينتقم مني على أشياء تافهة من الماضي، وأعرف أنه لن يتراجع حتى يحقق انتقامه مني، لكن.. ما ذنب (هشام) و(مروان)؟ إنهما لم يفعلا له شيئًا سوى أنهم صديقَّيّ!"

- "مهلًا يا صديقي، اهدأ.. اهدأ.. أخبرني أولًا من (رمزي طارق)، ومن (هشام)، ومن (مروان)، ولماذا يريد أن ينتقم منك؟ وما الأشياء التافهة من الماضي التي تستوجب هذا الانتقام؟"

هذا الشاب المرتعد يكبرني ببضعة أعوام، وأقابله للمرة الأولى، وبالتأكيد لم يكن مناسبًا أن أخاطبه بلفظة "صديقي"، لكن الإنسان في لحظات الضعف الشديد يتحول إلى طفل صغير مذعور، يحتاج إلى من يحتويه، وكذا الأمر في حالات الفرح والحزن والخوف، وهو الآن يجمع بين كل هذه الحالات عدا الفرح، ويجب أن أظهر له التعاطف، وإن كنت حقًا لا أفهم شيئًا مما يقول!

ظل يرتعد، ولم يلبث أن انخرط في البكاء، وهو يغمغم قائلًا:-

- "أنا لم أفعل شيئًا، لماذا يعتقدون أنه أنا؟"

مجددًا لا أفهم ما يقول، وأنا بحاجة حقًا لأن أفهم حتى أساعده، لم أملك إلا أن أربّت على كتفه برفق وحنوّ، وأسأله:-

- "احك لي يا صديقي ما يؤرقك، لعلي أتمكن من مساعدتك!"

لكنه ظل يرتعد ويبكي، ويغمغم بكلام غير مفهوم، حتى رفع رأسه فجأة والدموع تلطخ معظم أنحاء وجهه، وقال بصوت متهدج:-

- "لست أنا من أخذ الصندوق!"

صندوق؟! أي صندوق؟!

أعادها مرة أخرى لكن بصوت أشد ضعفًا وانكسارًا:-

- "لست أنا من أخذ الصندوق!"

أي صندوق؟!

***

ضجيج، صخب، ضوضاء.. أضف إلى ذلك القاموس أي شيء بهذا المعنى، وستحصل على ذات النتيجة!

إنه تجمع أسري يحدث كل عام في هذا اليوم بالتحديد: الحادي والعشرين من شهر مارس، حيث الاحتفال السنوي بعيد الأم، الأخت الكبرى (نوال) جاءت مع زوجها السمج القميء (عثمان)، وأبناؤهما الثلاثة: (عمرو)، و(علاء)، و(نادين)، وزنها يزداد عامًا بعد عامًا، مؤكد أنها تجاوزت التسعين كيلو جرامًا الآن، ولو قدرناه بالأرطال بدلًا من الكيلو جرامات فسوف نحصل على كارثة! على الرغم من أنها خريجة فنون جميلة، وتقوم بتدريس الرسم بإحدى المدارس الحكومية، وشغلها الشاغل: الألوان والأزياء والموضة بكافة أنواعها.

زوجها السمج القميء (عثمان) أسوأ حالًا، فهو أيضًا يزداد بدانة عامًا بعد عامًا، ويبرز كرشه أمامه كامرأة حبلى قرب موعد ولادتها، وقد تساقط شعر رأسه بالكامل إلا شراذم متناثرة على الجانبين، مما اضطره لحلق تلك الشراذم المتناثرة حتى أصبح رأسه كصحراء جرداء زلقة، تلتمع بفعل الإضاءة مع العرق، لكن الأسوأ من بدانته وصلعه: اعتقاده بأنه وريث (فرويد) في علم النفس، على الرغم من كونه مجرد معلم علم نفس بمدرسة ثانوية، وتخرج في كلية الآداب، لا الطب، لكنه لا يفتأ بتعامل مع من حوله باعتباره طبيبًا نفسيًا، ولا يفتأ يحلل الشخصيات التي يقابلها، ويدعي الاطلاع على ما يجيش بداخلها من مشاعر وانفعالات وأفكار وهواجس، وحديثه كله لا يطاق!

كذلك أتى الأخ الأكبر (أحمد) رفقة زوجته (سارة)، وولديهما: (حسام) و(سيلين) – لا ندري من أين يأتون بهذه الأسماء! – هو مهندس بشركة مقاولات، دخله جيد، وزوجته أيضًا تعمل بوظيفة جيدة، لهذا هما مستقلان عن الأسرة الأم تمام الاستقلال، ولا أحد من العائلة يراهما إلا في المناسبات.

لحسن الحظ أيضًا تخلفت الأخت الصغرى (شيماء) وزوجها وابنهما عن الحضور، لأنهم سافروا إلى الخليج منذ عامين، ولا ينوون العودة قريبًا، وإلا أصبح الزحام والضجيج لا يطاق هذه الليلة.

كان (حسين) يرى السعادة بوضوح على وجهي أبيه وأمه في وجود هذا الحشد الصاخب، وإن كان لا يستطيع أن يفهم سر هذه السعادة، فهم يقبلون كالهكسوس فينسفون كل الطعام الذي بالبيت نسفًا، ثم يرحلون مخلفين وراءهم الخراب، الذي تستغرق أمه بضعة أيام في التخلص من آثاره، وإعادة البيت للحال التي كانت عليها قبل حضورهم، لا يوجد أي شيء يدعو للسعادة في ظل هذا الصخب والضجيج والخراب.

المشكلة أن (حسين) أيضًا مطالب بإظهار سعادة مزيفة على وجهه، وهو ينظر إليهم ناقمًا ساخطًا، حتى لا يُتهم بقلة الذوق، ويتلقى التوبيخ والتقريع من أبيه وأمه على الأقل.

(حسين) بلغ الثامنة والثلاثين من عمره، وهو الوحيد الذي لم يتزوج من بين جميع إخوته، وبالتالي لن يكون له إسهام في هذا الضجيج، لكنه يقبع دائمًا في موضع العم والخال طوال الوقت، ولسبب ما يحبه هؤلاء الأولاد جميعًا بالرغم من أنه لا يظهر لهم أي نوع من الترحيب، خاصة في مثل هذه التجمعات الصاخبة، لكن عبارة "أونكل (حسين)" لا تفتأ تتردد في الدار طوال الوقت، سواء كان الناطق بها من أبناء أخته (نوال) أم من أبناء أخيه (أحمد)،

والأسوأ من ذلك أنهم يتشبثون أحيانًا بالبيات عندهم، ولسبب ما يختار الأولاد غرفته بالذات لتكون مأواهم جميعًا، وهكذا يأتي الصباح فترى بضع جثث متفاوتة الأحجام تلتصق سويًا بالطول والعرض على ذات الفراش، وتتداخل أصوات غطيطهم!

المنزل يتسع لثلاث غرف بجانب المطبخ والحمام والردهة، غرفة لـ (حسين)، والأخرى لأبيه وأمه، والثالثة لجده –من جهة الأب– (كامل)، الذي يقيم معهم منذ سنوات، من بعد رحيل الجدة للعالم الآخر، وتفرق أبنائه الآخرين في البلاد.

كان الصخب يزداد دقيقة بعد أخرى، وبين الفينة والفينة يُسمع صوت سقوط أشياء على الأرض، مصحوبًا بأصوات تهشم أحيانًا، وصيحات ألم أحيانًا أخرى، وأصوات عراك واشتباك أحيانًا ثالثة، وفي جميع الأحوال تعقب الأم على ما يحدث قائلة بابتسامة رقيقة:–

– "حصل خير!"

تقولها دائمًا وهي مبتسمة، أيًّا كان الحدث، وكانت سعيدة حقيقة – لا تصنعًا – بهذا التجمع الصاخب، ويشاركها الأب تلك السعادة، التي يعبر عنها بضحك متواصل لا ينقطع، وثرثرة مع هذا وذاك، بينما يجلس (حسين) في وسطهم محاولًا بجهد إخفاء ضجره وسخطه على هذا الصخب المستمر، ولا يشارك في الحديث إلا نادرًا.

فجأة قطع هذا الصخب صوت يصيح في دفقات متتالية:–

– "الصندوق!.. أين الصندوق؟!.. من أخذ الصندوق؟!"

استغرق الجميع بضع لحظات حتى يستوعبوا الأمر، ليكتشفوا بعدها أن هذا الصوت صادر من غرفة الجد الذي كان يجالسهم قبل دقائق قليلة مضت، ثم

ترك الزحام والضوضاء وذهب لغرفته، وظن الجميع أنه ذهب ليرقد ويريح أذنيه من هذا الصخب.

كان الصوت هادرًا لا يتناسب مع حالته الصحية التي يهيمن عليها الوهن، بجانب ضعف بنيته وحنجرته، وعلى الفور هب الجميع تباعًا وانطلقوا نحو غرفة الجد، ليروه واقفًا في وسط الغرفة يرتعد من مفرقه إلى أخمصه، ويحدق في الجميع بوجه محتقن وعينين محتقنتين:-

- "من أخذ الصندوق؟"

كان (حسين) آخر من وصل إلى الغرفة، ووقفوا جميعًا في بلاهة ينظرون إلى الجد وهو يرتعد، وتلك الشعيرات البيضاء الصغيرة التي تنبت كالأشواك أسفل ذقنه، وفي مواضع متناثرة من خديه، ترتعد هي الأخرى بشكل غريب، لم يكن يرتدي نظارته، لذا بدا شكل عينيه غريبًا وقد طغى عليهما اللون الأحمر، ووجهه النحيل بدا وكأنه تورم واصطبغ بالاحمرار هو الآخر، وهو لا يزال يصيح بصوته الهادر الطارئ عليه:-

- "من أخذ الصندوق؟.."

وبدأ الحاضرون يتحدثون، وكان حديثهم عبارة عن تساؤل جماعي:-

- "أي صندوق؟!"

بدأ السؤال يتردد على شكل نظرات تتوزع فيما بين الجمع الحاضر، ثم انتقل من الأعين إلى الألسنة التي شرعت تتبادل الحديث بعد برهة، فالحقيقة المؤكدة أنه لا أحد منهم على الإطلاق يعرف أي صندوق في هذا البيت، ولا أحد يذكر أنه رأى صندوقًا من أي نوع بحوزة الجد بالأخص! وكان الأب أول من وجه السؤال إلى الجد مباشرة:-

- "أي صندوق هذا؟"

فأجاب الجد وهو لا يزال يرتعد رعدة شخص مكلوم أو ملتاع بالفقد:-

- "صندوقي.. هناك من أخذ صندوقي.."

مرة أخرى عاد الجميع يتساءلون فيما بينهم: أي صندوق؟!

حاولت الأم أن تحول هذا الموقف من الإطار النظري الذي لا يعدو التساؤل الأجوف، إلى موقف عملي ممثل في سلوك وتصرف، فطلبت من الجميع أن يبحثوا عن الصندوق، أي صندوق يصادفهم، وهكذا تحول البيت إلى خلية نحل ابتداء من غرفة الجد، ولم يتخلف عن عملية البحث الجماعي سوى الأخت (نوال) التي ظلت تلازم الجد في محاولة منها أن تهدئ من روعه، وتعده بأنهم سيعثرون على الصندوق مهما كلف الأمر، دون أن تدري هي -أو غيرها- عن أي صندوق يتحدث الجد!

وهكذا انتشر النحل في كل مكان، واستغرق البحث وقتًا غير معلوم، ويصعب تقديره، لكن بعد دقائق طالت أو قصرت بدأ الحماس يخف، والجدية تخبو، حتى اجتمعوا مرة أخرى في الردهة وكل منهم ينظر إلى الآخرين في حيرة وغباء، فقد أدركوا جميعًا في ذات اللحظة أنهم يبحثون عن شيء لا يعرفونه، في مكان لا يعرفونه أيضًا!

وكان (حسين) أول من تحدث على غير العادة، ووجه سؤاله إلى الجميع:-

- "هل أنتم واثقون من وجود هذا الصندوق من الأساس؟"

نظروا جميعًا إليه مستفسرين، على الرغم من وضوح عبارته لهم، فوجد نفسه مطالبًا أمامهم بمزيد من التوضيح، فقال بتردد:-

- "أعني أنني أعيش هنا منذ مولدي لم أغادر ألبتة، ودخلت غرفة جدي منذ أن انتقل للعيش معنا عشرات - إن لم يكن مئات - المرات، ولا أذكر أني رأيت صندوقًا بحوزته على الإطلاق!"

ثم ختم عبارته بسؤال صريح موجه للجميع:-

- "هل سبق لأحدكم أن رأى هذا الصندوق في أي وقت من الأوقات؟"

كان الجميع قد استوعبوا هذا السؤال الضمني غير المنطوق منذ أن نطق (حسين) عبارته الأولى، ودون الحاجة إلى هذا التصريح، وبدأ كل منهم يعتصر ذاكرته بحثًا عن صورة أي صندوق يخص الجد، وبدا له من تعبيرات وجوههم جميعًا أنهم لا يذكرون أي شيء عن أي صندوق!

واغتنم (عثمان) زوج أخته الفرصة ليتقمص دور (فرويد) قائلًا:-

- "إن الهلاوس والأوهام تصاحب الشيخوخة عادة، سواء كانت هلاوس سمعية أم بصرية، وتساهم الأدوية المختلفة التي يتناولها كبار السن في تعزيز الهذيان لديهم، وكذلك يلعب ضعف الحواس كالسمع والبصر دورًا بارزًا في صناعة تلك الهلاوس، بالإضافة إلى بعض التلف في بعض خلايا المخ!"

على الرغم من مقت (حسين) الشديد أسلوب صهره (عثمان) في الحديث، مما يجعله يبدو كما لو كان يلقي محاضرة علمية على حفنة من الطلبة، وهي لحظات يحب أن يستعرض فيها ثقافته، لكنه سعد لتأييده الفكرة التي يود طرحها.

إلا أن أخته (نوال) هدمت ذلك البناء المنطقي النفسي على رءوسهم، إذ قالت وهي تقف على باب غرفة الجد تنتظر نتيجة بحثهم:-

- "أنا رأيته منذ سنوات بعيدة، قبل زواجي، وقبل أن ينتقل الجد ليقيم هنا، إنه صندوق صغير بلون (الجرافيت)، يشبه الشكمجية!"

تضايق (حسين) كثيرًا لهذا الطرح من أخته، لأنه -أولًا- يهدم نظريته تمامًا، وضايقه أكثر أسلوبها في وصف الألوان، ماذا يعني الجرافيت هذا؟ بل ماذا يكون؟

وغمغم الأخ (أحمد) قائلًا:-

- "إذن نحن نبحث عن صندوق أسود! كأننا نتحدث عن طائرة تحطمت في الصحراء!"

صندوق أسود! علم (حسين) أنه يقولها ساخرًا، لكنه طرق بابًا كان موصدًا في عقله وسعى طويلًا لفتحه، أيام كان مهتمًا بالقراءة والاطلاع، كان السؤال الذي يشغل باله وقتذاك: هل الصندوق الأسود بالفعل هو صندوق؟ وكيف يعمل؟ ثم عرف أن الصندوق الأسود الموجود بالطائرات ليس أسود كما يسمى، بل إنه ليس حتى صندوق واحد، بل هما اثنان: أحدهما وظيفته حفظ البيانات الرقمية والقيم الفيزيائية مثل: الوقت والسرعة والاتجاه، والثاني وظيفته تسجيل الأصوات مثل: الحوارات والمشاحنات وطلب النجدة، والصندوقان مجهّزان ببث صوت يندلع إذا ما غاصت الصناديق في الماء، وبث إشعار فوق الصوتي للمساعدة في العثور عليهما، وتُحفَظ هذه الأجهزة في قوالب متينة للغاية مصنوعة من مواد قوية مثل عنصر التيتانيوم، تحيطها مادة عازلة لتتحمل الصدمات والحرارة والضغط بدرجات كبيرة، كما تتكون قطع التسجيل عادة من مادة عازلة تحميها من التعرض لمسح المعلومات المسجلة عليها، وكذلك من العطب والتآكل جراء مياه البحر لمدة طويلة.

والصندوقان لونهما برتقالي أو أصفر، وذلك ليسهل تمييزهما بين حطام الطائرة، لكن لماذا التصق بهما تسمية ووصف اللون الأسود؟

قراءات (حسين) لم تمكنه من التوصل لإجابة هذا السؤال، وتكوّن لديه اعتقاد أن الأمر يتعلق بالكوارث الجوية وحوادث تحطم الطائرات، فهو السبب الأكبر لدفعهم للاهتمام بمعرفة ما يحوي كلا الصندوقين، واللون الأسود دائمًا مرتبط بالمصائب والموت والكوارث، بالرغم من أن الشاعر (أمل دنقل) زعم

العكس في إحدى قصائده!

لون أسود يعني حداد، يعني نسوة ورجالًا يرتدون الثياب السوداء القاتمة، يعني ليلًا طويلًا حالك السواد مفعم بالدموع، يعني خطوط الكحل التي ترتسم على الخدود ذائبة في الدموع!

(حسين) يكره اللون الأسود، ويقشعر قلبه عند سماع هذه الكلمة!

قالت (سارة) زوجة أخيه (أحمد) باهتمام غريب:-

- "ماذا يوجد به يا ترى؟"

رد (حسين) في عصبية:-

- "وما يعنينا من هذا؟"

لكنها أجابت بإصرار:-

- "(نوال) تقول إنه يشبه الشكمجية، ربما كان به قطع من الذهب يدخره الجد، إذن نحن نتحدث عن لص سارق، يعرف ما في الصندوق، ولهذا قام باختلاسه!"

بدا حديثها منطقيًا الآن، لكنه قال في نفسه: يا للنساء! هذا إذن سر اهتمامها المباغت، يظل الذهب دائمًا نقطة ضعف الأنثى في كل مراحل عمرها!

لكن الأب تدخل أخيرًا قائلًا:-

- "مستحيل! أبي لا يملك أي مدخرات، لقد أنفق كل ما لديه على علاج أمي، ولم يتبق معه سوى معاشه الشهري، أنا واثق من هذا، حتى إنه لا يزال يرفض بيع شقته القديمة ولا حتى تأجيرها، ويقول: بعد أن أموت افعلوا ما يحلو لكم بها.."

سُرَّ (حسين) مجددًا بقول أبيه، لأنه يهدم النظرية المعارضة لنظريته، لكن نظريته هو أيضًا أصبحت مستبعدة في ظل تأكيد (نوال) على أنها رأت الصندوق، ومرة أخرى أتاهم صياح الجد المرتعد من داخل الغرفة:-

- "أين صندوقي؟ أعيدوه لي!"

وعاد الجميع يتبادلون النظرات في حيرة، وقالت الأم:-

- "لا أحد يدخل بيتنا على الإطلاق، مستحيل أن يكون لصًا أتى دون أن نشعر وسرق الصندوق!"

لكن (سارة) قالت إصرار:-

- "اللصوص، يا حماتي، يدخلون ويخرجون دون أن يشعر بأحدهم، هكذا شأن اللصوص دائمًا."

وهنا تدخل (عثمان) قائلًا بطريقته السمجة في التنظير:-

- "لنرتب أفكارنا: إما أن يكون هناك صندوق بالفعل، وقد سُرق على حين غفلة من الجميع، وهذا شيء لن يحسمه سوى الساكنين بهذا البيت دون غيرهم، وإما ألا يكون ثمة صندوق من الأساس، والجد يهذي، وهذا الاحتمال ليس لنا سبيل للتأكد منه بكل أسف!"

نظر إليه (حسين) في غيظ، ولسان حاله: "تبًا لك! وما الذي ربحناه من هذا التنظير؟"

قالت (سارة) مجددًا:-

- "لو عرفنا ماذا يوجد بالصندوق، لربما استطعنا الاهتداء إلى من أخذه! لو كان به ذهب فالذي أخذه لص، ولن يكون من أصحاب البيت ربما.."

ماذا تعني بكلمة (ربما) هذه؟ كلامها لم يعجب (حسين) بالمرة، وانتبه في هذه اللحظة إلى أنه يدخل في دائرة الشك بقوة استنادًا لهذا الطرح، فهو مقيم

بشكل دائم بالبيت، وعاطل عن العمل، ومفلس أغلب الوقت، إذن....؟

فجأة صاحت ابنة أخيه الصغيرة (سيلين) بحماسة:-

- "إنه صندوق الذكريات!"

سددوا جميعًا نظراتهم إليها في غباء، فأضافت بنفس الحماسة:-

- "لدينا درس في كتاب اللغة العربية اسمه (صندوق الذكريات)، جدّ (بسنت) لديه صندوق ذكريات به خطاب قديم أرسلته له أخته من أوروبا، وشريط تسجيل عليه أغاني وطنية، وصورة زفاف، وكرة جورب.."

صمتوا جميعًا محاولين استيعاب هذا المنطق الذي تود طرحه عليهم، لكن (حسين) انفجر فجأة بالضحك من سخافة الفكرة، إلا أن ضحكته انقطعت سريعًا حين اصطدمت بنظرات الآخرين التي انتقلت من الطفلة (سيلين) إليه، وفي اللحظة التالية بدأ يدرك أن الفكرة ليست بهذا السخف، صندوق يملكه رجل في الشيخوخة، ماذا سيكون فيه سوى أشياء قديمة تمثل له بعض الذكريات التي لا يريد أن ينساها؟ لكن هذا كله لا يحل المعضلة، هل هناك صندوق أو لا؟ ومن الذي أخذه؟ عادت (سارة) تقول في إصرار:-

- "لو كان به أشياء كهذه لألقاه اللص في أي مكان بعد أن خاب أمله، ولوجدناه بالبيت أو خارجه، من المؤكد أن به أشياء ذات قيمة، ربما يخفيها الجد عنكم، انظروا إلى حاله وعصبيته؟"

وعقب زوجها (أحمد) قائلًا:-

- "(سارة) تتكلم بشكل سليم، إنه التفسير المنطقي الوحيد!"

لكن (حسين) قال في إصرار بدوره:-

- "لقد أكد لكم أبي أن جدي لا يملك شيئًا من هذا، ولم يحدث أن رأى أحدنا أي شيء ذا قيمة بحوزة جدي، وحتى لو كان موجودًا، لا يمكن لأي

لص أن يدخل البيت دون أن نشعر به، أنا واثق من أنه لا يوجد أي صندوق من الأساس!"

أراد بعضهم أن يعترض على كلامه استنادًا لما قررته أخته (نوال) لكنه استطرد متقمصًا دور المحامي الذي يحاول إثبات براءة موكله بكل الطرق:-

- "(نوال) واهمة، أنا كنت موجودًا أيام أفرغنا شقة جدي، ونقلنا أغراضه إلى هنا، لم يكن هناك أي صندوق بها، وإلا كنا رأيناه، أبي أيضًا كان هناك، أليس كذلك؟"

ونظر إلى أبيه مستمدًا منه الدعم، لكن الأب كان ينظر إليه حائرًا كأنه يحاول أن يتذكر، فواصل (حسين) قائلًا:-

- "إنها هلوسة كما يقول (عثمان)، لو كان هناك صندوق لرأيناه جميعًا، أو لرآه أحدنا على الأقل!"

التزم الجميع الصمت بعد هذا القول، وعادوا مرة أخرى يتبادلون النظرات في حيرة، لكن فجأة قطع الصمت صوت الجد وهو يقف على باب غرفته و(نوال) تحاول أن تسنده، كان يصيح قائلًا:-

- "إنه أنت.. أنت..!"

توجهت نظرات الجميع نحوه بسرعة، فإذا بالجد يسدد بصره الضعيف تجاه (حسين) بالتحديد من بين كافة الحضور، ورفع سبابته ليشير بها نحوه، وهو يواصل صائحًا:-

- "أنت الذي سرقت الصندوق.. أنا رأيتك، إنه أنت!"

وهذا المرة توجهت النظرات جميعها باتجاه (حسين)!!

***

(٢)

- "ابتعد عن أصدقائي أيها الوغد، لن أسمح لك بتدمير حياتهم، لن أقف أشاهدك وأنت تفعل ذلك، سأمنعك بكل ما أوتيت من قوة، ابتعد عنهم هذا لصالحك!"

كان الوغد ينظر إلى (حسين) بدهشة وتساؤل، بل كان يتظاهر بالدهشة والتساؤل، (حسين) كان واثقًا من أنه يعرف ما يتحدث عنه جيدًا، مؤكد أنه يعرف! رفع الوغد أحد حاجبيه، وقال متسائلًا:-

- "أصدقاؤك؟ من تقصد؟"

- "أنت تعرف من أقصد."

- "كلا.. لا أعرف على الإطلاق ما الذي تتحدث عنه."

حسنٌ! تريد أن تلعب هذه اللعبة؟ لن أجاريك فيها، ولن أمنحك الفرصة للمراوغة..

- "ابتعد عن (مروان)، وعن زوجة (هشام)، وعن كل الآخرين، مارس حياتك كما يحلو لك، مارس حيلك وذلك السخف الذي تقدمه وتخدع به الناس، لا يهمني، لكن إياك، إياك أن تتعرض لأصدقائي وإلا سأسحقك، أنا أعني هذا، وأنت تعرف جيدًا أني ليس لديّ ما أخسره ألبتة."

تبدد تعبير الدهشة والتساؤل عن وجهه وعينيه، اعتقد (حسين) أن هذا أول انتصار له في هذه المواجهة، وأنه لا يزال بإمكانه تحقيق المزيد، لكن المدهش أن الوغد لا يبدو منهزمًا، تلك الابتسامة الهازئة، والنظرات الساخرة، هذا محنق ومحبط للغاية!

- "ليس لديك ما تخسره!"

اتسعت ابتسامته أكثر، وأشار بسبابته تجاه (حسين) وهو يستطرد:-

- "هذا هو مربط الفرس كما يقولون، انظر إلينا أنا وأنت، أنا شخص ناجح في حياتي، أمتلك المال إلى الحد الذي يكفل لي العيش الرغد، أمتلك الشهرة، ولديّ كثير من المتابعين في العالم العربي والغربي على السواء، صحيح أني لا زلت أعيش لوحدي، ليس لي زوجة أو حبيبة، لكن لا تنكر أني لو أردت الحصول على زوجة أو حبيبة لفعلت، ولكانت أجمل حتى من زوجة (هشام) صديقك الذي تزعم أنك أتيت لتحميه مني حسب زعمك."

تلاشت ابتسامته تدريجيًا وهو يحدق بـ (حسين) في ثبات، ثم أضاف بنبرته الغائرة المستفزة:-

- "في المقابل أنت لا تملك أي شيء على الإطلاق، لقد فشلت في جميع جوانب حياتك، على جميع الأصعدة والمستويات، وباعترافك أنت لا تملك أي شيء لتخسره."

ماذا تريد أن تقول أيها الوغد؟ أفصح عن غرضك مباشرة!

- "ما أريد أن أقوله: إنك أنت من يمتلك الدوافع لتدمير حياة أصدقائك، لا أنا.."

أيها الوغد...! بدت لـ (حسين) أنها اللحظة المناسبة للانقضاض عليه، خاصة أنه يريد أن يسترسل في هذا، وقد استعاد ابتسامته المستفزة:-

- "كل صديق من أصدقائك يمتلك شيئًا ما أنت لم تستطع الحصول عليه، هذا الإحساس يلازمك منذ صغرك، ويستفحل بنموك، والآن تريد أن تنتزعه من نفسك لتسقطه على الآخرين، ترى إلى أين سيقودك هذا؟ لست بحاجة لأن أكون عرافًا أو متبصرًا لأعلم يقينًا أنه سيقودك لتدمير نفسك، فالنار تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله، أليس كذلك؟"

حتى لو كان ذلك صحيحًا، على الأقل سيكفل لي أن أدمرك أولًا قبل أن أدمر نفسي كما تزعم، وسأفعلها الآن!

إنها النهاية أيها الشيطان!!

***

(رمزي طارق)! اسم غير موسيقي، لكنه مألوف بالنسبة لي، لقد تذكرت بعد مدى من الوقت من يكون، إنه ذلك الشاب الذي درس الفلسفة، وسافر للخارج ليحصل على أعلى الدرجات العلمية فيها، ثم قرر أن يقدم فيديوهات في التنمية البشرية، ولاقت هذه الفيديوهات نجاحًا كبيرًا، وأصبح لديه ملايين المتابعين في العالم العربي وغيره، فهو يملك المظهر الجذاب، والأسلوب المقنع والمؤثر في الحديث والإلقاء.

ما لا يعرفه الناس أن (حسين) كان زميل دراسة (رمزي طارق)، وإن كانت العلاقة بينهما سيئة طوال الوقت.

بدأت زمالتهما من المرحلة الإعدادية، حيث شاء القدر أن يضعهما في ذات الفصل الدراسي معًا، ومن أول لقاء بينهما لم يستلطف أحدهما الآخر، وأصبح مشهد العراك بينهما معتادًا، وإن توقفا عن العراك والاشتباك بالأيدي فإنهما أبدًا لم يتوقفا عن الاستهزاء ومحاولة استفزاز كل منهما الآخر.

واستمرت علاقة القط والفأر بينهما حتى كبرا والتحقا بالمدرسة الثانوية، وظلا معًا في ذات الفصل الدراسي، ثم انتقلا إلى الجامعة، ليلتحقا بذات الكلية، غير أن (حسين) اختار قسم التاريخ، بينما (رمزي طارق) اختار قسم الفلسفة، لكن هذا لم يكن كافيًا ليفترقا، فقد كانت الرفقة التي تجمعهما كما هي، وبينهما أصدقاء مشتركون كثر، لكن لقاءاتهما أصبحت قليلة عن الماضي.

ويبدو أن الفلسفة كانت توافق ميول (رمزي طارق) بشدة، إذ أنه تألق وتفوق في دراسته بشكل ملحوظ، حتى حصل على الليسانس وهو من الأوائل على دفعته، وهذا ما دفعه لاستكمال دراسته العليا والسعي نحو الماجستير والدكتوراه، بعكس (حسين) الذي بالكاد أنهى دراسته الجامعية، وانضم إلى طبقة العاطلين عن العمل، والباحثين عن وظيفة دون أمل حقيقي.

وبعد سنوات انتقل (رمزي طارق) إلى أوروبا لاستكمال دراسته العليا، ثم تحول إلى محاضر في التنمية البشرية، وأصبح صيته ذائعًا في ربوع الوطن العربي، بينما لا يزال (حسين) ينتقل من مقهى إلى مقهى بالليل، ومن شارع إلى شارع باحثًا عن وظيفة لائقة بالنهار.

لكن فجأة – ذات نهار – لقيه صديقه (مروان)، وقال له:–

– "(حسين)، سوف نذهب مساء لزيارة (رمزي) في بيته، هل تأتي معنا؟"

(رمزي)! من (رمزي) هذا؟

– "(رمزي طارق) أيها الأبله، صديقنا القديم، إنه في مصر هذه الأيام، وقررنا زيارته قبل أن يسافر، فهل تأتي معنا؟"

اقشعر بدن (حسين) حين سمع الاسم، فبالرغم من مرور سنوات على آخر لقاء جمعه بهذا الوغد، إلا أنه لا يزال لا يطيقه، ولا يطيق رؤيته ولا سماع اسمه، لذا لم يرحب بالفكرة، وأبلغ (مروان) بذلك.

لكن مع حلول الساعة السابعة كان يجلس هناك في ذلك المنزل الفاخر الأنيق، رفقة صديقيه (مروان) و(هشام)، يتحلقون حول صديقهم القديم الذي تحول إلى شخص آخر ظاهرًا وباطنًا، كما يتحلق المريدون حول شيخهم، ويحاول كل منهم أن يستوعب أحاديث مضيفهم الغامضة المتحذلقة التي تفوق قدراتهم على الفهم والاستيعاب.

كان (هشام) يحدق النظر فيه في ثبات، بينما ينظر (مروان) إليه بانبهار، ويومئ برأسه موافقًا إياه على ما يقول، في حين أسند (حسين) رأسه على مسند الأريكة التي يجلس عليها، وبدا كما لو كان يغالب النوم، وهو يحاول ألا يحِدَّ النظر إليه، أو أن يصوب إليه بصره بشكل مباشر.

إنه (رمزي طارق) صديقه اللدود، وعدوه الحميم، وهذا الوصف مقصود لا معكوس، لقد تغيّر مظهره وأصبح أكثر أناقة ووسامة، ومع ذلك بعثت رؤيته القشعريرة في قلب (حسين)، خاصة وهو يرى اللون الأبيض يغلف كل شيء في غريمه القديم، لقد صبغ (رمزي طارق) شعره كليًّا باللون الأبيض، ولبس ثيابًا بيضاء بالكامل، حتى الحذاء في قدميه كان لونه أبيض، إطار نظارته السميك كان أبيض، الجدران بدورها كانت مطلية باللون الأبيض، المفارش التي تغطي الأرائك والطاولات كانت بيضاء، اللوحات المعلقة على الجدران يغلب عليها اللون الأبيض، يفترض أن اللون الأبيض مبهج يفتح النفس، لكن هذا البياض الشائع بالمكان جعل (حسين) يشعر بامتعاض شديد.

كان الترحيب من قبل مضيفهم حارًا على غير المتوقع، وهو يعانقهم واحدًا تلو الآخر بوجه باسم، ويشد على أيديهم في المصافحة، ويذكرهم بالاسم، وحين وصل إلى (حسين) ضمه بقوة إلى صدره، وهو يقول:-

-"(حسين) صديقي العزيز، سعدت كثيرًا بحضورك."

ولم يعرف (حسين) بم يجيبه، فهو نفسه غير سعيد برؤيته، ولا يستطيع التصريح بهذا، وكذلك ليس من الذوق أن يصرح بمشاعره الحقيقية.

في بداية الجلسة حاول (حسين) أن يستوعب ما يقوله غريمه اللدود، الذي يبدو أنه أدمن الفلسفة، وأمسى لا يتحدث إلا بها، لكنه لم يلبث أن كف عن محاولة الفهم والاستيعاب، وأصبح كل همه أن ينقضي الوقت سريعًا وتنتهي

هذه الجلسة المقبضة، وكان بين الفينة والفينة ينظر إلى ساعة الجوال متلهفًا لإيجاد فرصة للاستئذان تحت أي حجة، وإذا صرف نظره عن الساعة اصطدمت عيناه بالبياض الذي يغلف كل شيء حوله.

ولا حظ مضيفه وغريمه القديم هذا، فقال بنبرة ودود:-

- "أنا أعشق اللون الأبيض يا صديقي، كنت أعشقه فيما مضى أيام رفقتنا، لكن الآن أصبحت أعشقه بجنون!"

بالرغم من أن الكلام فيه نبرة تودد واضحة، إلا أن (حسين) شعر بانقباض، وقال بحذر:-

- "حتمًا هناك سر!"

كذا قالها، وإن كان في حقيقة الأمر لا يبالي بالأمر ألبتة، لكنه حاول أن يكون طبيعيًا، ويشارك في الحوار بشكل طبيعي، وأن يظهر متعة زائفة بوجوده في هذا المكان رفقة هذا الشخص الذي يثير في نفسه التوجس!

ابتسم (رمزي طارق) قائلًا بصوته الرخيم:-

- "ليس بالضرورة، لكن يمكنك القول أني ارتبطت باللون الأبيض منذ طفولتي، علميًا الضوء الأبيض يشمل العديد من الألوان المعروفة حولنا، أظنك تعرف أن ألوان الطيف السبعة لو امتزجت معًا ستكوّن الضوء الأبيض، إذن اللون الأبيض يجمع الحياة كلها، وأنت تعلم أيضًا بحكم صداقتنا الطويلة أن الشيب بدأ في الظهور برأسي في سن العشرين، وقد ضايقني هذا في البداية، لكني لما انتقلت إلى أوروبا رأيت الناس هناك يصبغون شعرهم باللون الأبيض، وجربت الأمر فوجدته يحمل لمسة جمالية، فقررت أن أداوم عليه!"

هذا كله لم يكن يعني (حسين) في شيء، إنه يريد أن ينهي هذه الجلسة بأية حال، ولا يريد الاستماع إلى مزيد من هذا الهراء، (مروان) هو الذي جاء

به إلى هنا، فهل يفترض أن ينهي هو الجلسة هذه؟ المشكلة أن (مروان) يبدو مستمتعًا بالحوار أصلًا، ولا يريد أن يغادر.

(رمزي طارق) معروف بين الناس بمحاضراته اللي يلقيها في مجال التنمية البشرية، ويفترض أن الجلوس مع مثله دقائق معدودة كفيل يمنح الآخرين طاقة إيجابية مذهلة، لكن (حسين) يجلس هنا منذ ما يقرب من ساعة كاملة ولم يشعر بأية طاقة إيجابية، وإنما يشعر بالضجر والسأم والانقباض، ويجاهد بقوة ليخفي ذلك.

قال محاولًا إظهار الاهتمام بما يقال:-

- "لكن الشاعر (أمل دنقل) له وجهة نظر مغايرة تمامًا، له قصيدة يخبرنا فيها أن اللون الأبيض في الحقيقة يشير إلى الموت، وأن لون الحداد الأسود هو التميمة أو التعويذة المناهضة للموت!"

- "بالتأكيد قرأت هذه القصيدة وأعرف ما تتحدث عنه يا صديقي، بالرغم من أنني لست من هواة شعر (أمل دنقل)، إن الشخصيات السوداوية عادة تقوم بإسقاط جميع الظواهر المحيطة بها على القيم والمعاني السلبية، سيخبرك أن لون الكفن أبيض، وأن معاطف الأطباء والممرضات وأقراص الدواء والمحاقن وغير ذلك مما نراه في المصحات والعيادات وغرف العمليات، كل ذلك البياض يشير إلى الوهن والموت، لكنه سيتجاهل أن ثمة أشياء عديدة تشير إلى الحياة والقوة والنماء، ألا ترى مثلًا أن لون الغيوم المحملة بالماء الذي يهب الحياة للأرض أبيض؟ ألا ترى أن الأطباء أنفسهم الذين يعملون على إنقاذ حياة المرضى ومنحهم فرصًا جديدة للحياة يرتدون اللون الأبيض؟ وهكذا.. إذن اللون الأبيض يحمل دلالات إيجابية لا سلبية نراها بوضوح في حياتنا، لكن الشخصيات السوداوية تجنح دائمًا نحو القيم السلبية."

في الواقع لم يكن لدى (حسين) أدنى استعداد لمناقشة الأمر، أو تقديم أي طرح في أي اتجاه، لقد تحدث في الأمر في محاولة منه لإظهار الاهتمام بهذه الجلسة، لكن ليس إلى درجة أن يختاره غريمه اللدود ليدير نقاشًا معه من بين الحاضرين، المشكلة أن رفاقه ينصتون إليه باهتمام صامت ولا يحاول أحدهم التدخل، على الأقل ليصرف اهتمام غريمه عنه!

لكن (حسين) انتبه في هذه اللحظة إلى أحد التابلوهات المعلقة على الجدار خلف ظهر غريمه، كان عبارة عن لوحة زيتية رُسِم فيها فارس يرتدي ثيابًا بيضاء، ويغطي نصف وجهه أسفل عينيه بوشاح أبيض، ويمتطي حصانًا أبيض يرفع قائمتيه الأماميتين لأعلى، ويرتكز على الخلفيتين، والفارس يمسك بيده رمحًا أبيض طويلًا يسدده نحو شيء يشبه غولًا أبيض، أو رجل الثلوج الأبيض ليس واثقًا بالضبط، وكالعادة كانت اللوحة – أو التابلوه – يغلب عليها اللون الأبيض بالكامل!

لا يزال غريمه يتحدث إليه هو دونًا عن الآخرين وهو يحدّ النظر في وجهه، قال بصوته الغائر الآتي من أعماق بعيدة:-

- "سأخبرك بشيء آخر عني يا صديقي: أنا أرى الناس من حولي بالألوان: هذا أبيض، وذاك أسود، وذلك أحمر أو أصفر أو حتى برتقالي، ولا أستريح إلا للأبيض فحسب."

هذا واضح بلا أدنى شك، لكن (حسين) انتابه الفضول لأول مرة، فسأله باهتمام حقيقي:-

- "وكيف تراني أنا؟ أو كيف ترانا نحن جميعًا؟"

ضحك بمرح وقال:-

- "لا يفترض أن أخبر الآخرين بهذا، أنا أحتفظ برؤيتي لنفسي، لكن في حالتك أنت سأتخلى عن حرصي وأجيب."

وتوقف عن الضحك فجأة ومال نحو (حسين) مدققًا النظر أكثر في وجهي، ثم استطرد:-

- "أراك أنت باللون الرمادي!"

رفعت (حسين) حاجبيه مستنكرًا أو محاولًا الاستيعاب، لكن رفاقه بالجلسة اتخذوا الأمر كمزحة، ومضى كل منهم يسأله كيف يراه، وعاد غريمه للضحك وهو يوزع الألوان عليهم، وهم يضحكون بمرح، بينما (حسين) لا أشاركهم الضحك، فلا يزال غير مستريح للأمر، حتى تدخل (هشام) في الحوار ليغير دفة الحديث، إذ سأل مضيفهم باهتمام:-

- "لا زلت تعيش وحيدًا يا (رمزي)، لمَ لم تتزوج حتى الآن؟"

هز (رمزي) كتفيه بلا معنى، وقال:-

- "(حسين) أيضًا لم يتزوج حسب علمي، أنت نفسك يا (هشام) تزوجت منذ فترة قريبة، و(مروان) تزوج منذ سنوات لكن زواجه لم يصمد طويلًا، من الواضح أن دفعتنا لديها مشكلة حقيقية في مسألة الزواج، وعن نفسي لا أفكر في الزواج حتى هذه اللحظة، ولا يبدو أني سأفكر فيه في قادم الأيام، خاصة وأنا أقترب من الأربعين!"

قال (مروان):-

- "لكنك ناجح في حياتك، ولديك كل مقومات الزواج، وتتمتع بصحة جيدة، أخشى أن تكون الحياة في أوروبا جعلتك تميل إلى العلاقات خارج نطاق الزواج."

وأضاف (هشام):-

- "ربما ستحتاج إلى امرأة بجوارك عندما تشيخ بالفعل!"

لكن (رمزي) قال بهدوء:-

- "ما الذي يجعلني أفكر بالزواج ابتداء؟ إشباع حاجة جنسية كما يفعل معظم الرجال؟ إن الجنس ليس ضروريًا كالطعام والشراب، ويمكن للإنسان العيش بدونه، بل إنني أعتبر القدرة على مغالبة الشهوة الجنسية هي أحد أهم الفوارق الجوهرية بين الإنسان وسائر الحيوانات، كما أعتبر أن التحرر من الجنس هو أولى خطوات التحرر من قيود العالم.."

وسكت برهة، قبل أن يضيف أمام ترقب الحاضرين:-

- "هل أتزوج للحصول على امرأة تخدمني وتقوم بترتيب المنزل؟ يمكنني الاستعانة بخادم أو خادمة مقابل أجر ما ليقوم بذلك دون التقيد بالزواج.."

وأراد أن يضيف طرحًا ثالثًا، لكن (هشام) قاطعه لأول مرة قائلًا:-

- "وماذا عن الحب؟ أعني ماذا لو وقعت في حب امرأة؟ ألن يدفعك هذا للتفكير في الزاوج منها، لتكون برفقتك بشكل شرعي يقبله المجتمع؟"

أومأ برأسه موافقًا وقال:-

- "ربما هذا هو المبرر الوحيد المنطقي للإقدام على هذه الخطوة، لكن ماذا لو علمت أني لم أقع في الحب قط، ولا مرة في حياتي؟ أنتم أصدقائي ورفاق عمري، هل علمتم عني شيئًا من هذا؟ بعض أصدقائي المقربون الآن يصفونني بأنني رجل بلا قلب، لكن الحب أيضًا ليس من ضرورات الحياة، ويمكن للإنسان العيش بدونه!"

لم يلق هذا الطرح قبولًا من الحاضرين، ومضوا يتحدثون في وقت واحد، وعلا الصخب للحظات قبل أن يشير إليهم ليسكتهم بلطف، ثم قال بكياسته المعهودة:-

- "لذة الحياة يا رفاق تكمن في القدرة على الاستمتاع بها كما هي، كالهواء النقي الأصيل الذي لا تشوبه الأدخنة والأجسام العالقة، إذا كنت تعتقد أن الحب لن يعوقك من هذا، بل سيجعلك تستلذ الحياة أكثر لن أجادلك، ولن أقول إنك مخطئ، بل على العكس سأدعوك لأن تحب وتستمتع بالحياة من خلال هذا الحب، لكني عن نفسي أعتقد أن الحب سجن كبير، وطوق يغل عنقك ويكبل حركتك، وأن متعة الحياة تكمن في عدم الوقوع في حبائله."

ثم نظر إلى (هشام) تحديدًا ووجّه كلامه إليه مباشرة:-

- "أنت يا (هشام) حسب معلوماتي عثرت مؤخرًا على ذلك الحب الذي كنت تبحث عنه طيلة عمرك، وعلمت أن زوجتك حسناء ذات عينين زرقاوين وملامح أجنبية، ويفترض أن بها جميع المواصفات التي ينشدها رجل شرقي مثلك، ومن ثم فإن تجربتك مع الحب والزواج هي أكثر التجارب صدقًا، أعني أنك أكثر شخص يمكننا أن نثق في تجربته وحكمه، لذا دعني أسألك مباشرة: هل وجدت الحب والزواج روضة ممطرة فيها من الزهر المتفتح، والأغصان الوارفة، والخضرة والماء والعشب والأريج الفواح، أم أنك انتقلت إلى صحراء جرداء قاحلة، لم تظلل سماءها غمامة بيضاء ممطرة، ولا تشققت أرضها عن عيون وينابيع متدفقة منذ قرون، وليس فيها من مظاهر الحياة سوى سراب خادع؟ هل تكون ذلك الشخص الأمين الذين سيصدقنا القول؟"

وجم الجميع فجأة، بانتظار إجابة (هشام)، الذي تغير وجهه، وظهرت عليه معالم تعاسة غريبة ومدهشة بالنسبة لأصدقائه، فقد كانوا يظنون أنه سعيد في حياته الزوجية، وأنه عثر على فتاة أحلامه ويعيش في النعيم، لكن....

وكان مضيفهم ذكيًا بما يكفي ليرفع الحرج عن (هشام) ويغير الموضوع ويحوله إلى مزاح، ويشرك فيه الجميع.

لكن (حسين) قال بعد برهة ضاغطًا على حروف كلماته:-

- "بالمناسبة: السحب الممطرة عادة تكون باللون الرمادي لا الأبيض!"

نظر إليه (رمزي طارق) مستفهمًا، فقال (حسين) بنبرة غريبة:-

- "أنت قلت قبل قليل: أن السحب الممطرة بيضاء اللون، وهذا خطأ، إنها رمادية، بنفس اللون الذي تراني به."

تبادل الجميع النظرات في عجب، فلم تكن لتلك الملاحظة مناسبة وهم مستغرقون في الحديث عن الحب والزواج، لكن (حسين) كان في تلك اللحظة يشعر بالرضا، إذ أنها الفرصة الوحيدة التي لاحت ليخبر غريمه اللدود بأنه مخطئ!

***

(٣)

قطرات المطر تتجمع على زجاج واجهة المقهى، ثم تتحدر بشكل متعرج، الأمطار تسقط بغزارة بالخارج، وعلى نحو غير متوقع، في أقل من ساعة كانت المياه تغمر الطرقات، بطريقة شكلت معاناة حقيقية لقائدي السيارات، لكن (حسين) هنا مع حبيبته بالداخل، ودَّ لو أنه قام وبلل أصبعه وكتب شيئًا على الزجاج بماء المطر، لكن للأسف هذه القطرات تتجمع من الخارج، وهو لن يترك حبيبته هنا بالداخل ليخرج ويتوجه إلى الناحية الأخرى من الزجاج ويكتب عليه ما يريد، كما أن استمرار سقوط الأمطار سيمحو أي شيء يكتبه في غضون لحظات قليلة.

– "ماذا كنت لتكتب يا ترى؟"

كذا سألته حبيبته في نعومة، فأجاب في وله:–

– "ماذا سوى اسمك؟ (أمل).. لا أرى شيئًا في العالم يستحق أن يكتب سوى هذه الأحرف الثلاثة."

ابتسمت في وداعة، وتمسكت بكوب الشيكولاتة الساخن الذي تتصاعد منه الأبخرة، وأدنته من فمها الرقيق لترتشف منه جرعة صغيرة، وظلت ممسكة به بعدها ولم تضعه على الطاولة، اللون البني يبدو متوهجًا داخل الكوب بشكل محبب، (حسين) يحب اللون البني بشكل عام.

قالت له بنبرة عذبة:–

– "البني يشير إلى الاستقرار والأمان والقيم الراسخة، إنه لون الأرض الثابتة، كما أنه يُشير أيضًا إلى الحكمة والدعم والتوجيه، ومن ثم هو يُستخدم للتعبير عن العائلة والتراث، والشعور القوي بالواجب والمسئولية والالتزام، بوجه

عام هذا اللون يمثل الأمان والحماية، والملجأ من فوضى العالم الخارجي، ويزيد الشعور بالانتماء."

راقه هذا الشرح الموجز، وتذكر حين كان طفلًا صغيرًا تمنعه أمه من شرب الشاي بزعم أنه مضر بالصحة ويسبب الأنيميا، وكانت تضطر أمام بكائه وصراخه لأن تضيف إليه بعض الحليب، فيمتزج الأسود بالأبيض ويصبحان باللون البني الذي تختلف درجته حسب مقدار كل من الشاي والحليب.

تذكر أيضًا تلك القطة الصغيرة الجميلة ذات الفراء البني، كان يحبها ويحب احتضانها واللعب بها، لكن أخاه وتوءمه (حسن) كان يشمئز منها، ويرفض اصطحابها إلى فراشهما المشترك، وكانت رغبة (حسن) هي التي تنتصر في كل ليلة، لأنها تتوافق مع رغبة الأم والأب، اللذين كانا يبرران موقفهما بأن القطط الصغيرة قد تسبب الحساسية لأحدهما، أو لكليهما.

- "وماذا عن فتاة الشاطئ؟"
- "ماذا؟"
- "فتاة الشاطئ.. ألاحظ دائمًا أنك تتجنب الحديث عنها!"
- "مممم.. هذا صحيح."
- "ربما لأن ذكرها يثير ذكريات سيئة لديك!"
- "هذا صحيح أيضًا."
- "حبيبي.. جميع الأحداث الفاجعة يتلاشى أثرها بعض فترة من الوقت، وقد مضى على ذلك الحدث سنوات طويلة."
- "إذن؟"
- "يمكنك أن تحدثني عنها الآن!"

– "ليكن يا حبيبتي.. لا بأس باسترجاع بعض الذكريات السيئة من أجل إرضائك!"

***

آه من تلك الصخرة التي تبرز وسط المياه شامخة، كعملاق قرر أن يخوض البحر بقدميه وأبقى رأسه فوق سطح الماء ليتنفس!

كان (حسين) يرمق تلك الصخرة بعجز، خاصة وهو يرى الأولاد من مختلف الأعمار يقفزون في الماء ويسبحون حتى يصلوا إلى تلك الصخرة التي تقع في عمق البحر على مسافة بعيدة من خط الساحل، يمكن للكبار أن يسيروا بأقدامهم داخل الماء منتصف المسافة فحسب بين خط الساحل وموضع تلك الصخرة، ولا يمكن لهم السير بقية المسافة لأن القاع ينخفض لأسفل، وسوف تغمر المياه أي شخص يحاول، ولا مناص من العوم للوصول تلك الصخرة.

بعض الفتية كانوا يتسابقون في السباحة ويتخذون الصخرة منتهى السباق، من يصل إليها أولًا يكون الفائز، والبعض الآخر كان يسبح إليها ليمارس الوثب في الماء بهيئات مختلفة، مطمئنًا إلى أن عمق القاع من مختلف جوانبها يسمح له بالوثب في الماء بشكل آمن.

وكان (حسين) يبصر توءمه (حسن) وهو يسبح معهم، كان يجيد العوم ببراعة بعكسه هو، خوفه من الماء كان دائمًا يقف حائلًا دون قدرته على تعلم السباحة، وهكذا أصبح وجوده على الشاطئ ينحصر بين النظر بعجز وغبطة إلى هؤلاء الفتية – ومن بينهم شقيقه وتوءمه – وهم يسبحون إلى تلك الصخرة، وبين أن يقبع على الشاطئ يحاول بناء قصر أو قلعة برمال الشاطئ المبللة، وكان يفشل في هذه الهواية أيضًا أغلب الوقت.

في الواقع لم يكن (حسين) بارعًا في أي شيء في حياته، بالرغم من كونه قد بلغ الثانية عشرة من عمره وقتذاك!

كانت زيارة عائلية موسمية لبيت عمه بمطروح، فقد اعتادت الأسرة أن تقضي أسبوعين أو ثلاثة بالصيف من كل عام، على سبيل السياحة والنزهة، ليستمتعوا بدفء العائلة الكبيرة، ومرح اللهو على الشاطئ الذي يكون عادة مزدحمًا للغاية في مثل هذا الوقت من كل عام، وإن كان أقل زحامًا من شواطئ الإسكندرية.

لا يزال (حسين) يذكر ذاك النهار جيدًا، ولن ينساه مهما طال به الزمان، لقد كان اليوم الثاني لهم على الشاطئ، وكان قد ضاق ذرعًا من التفرج على الفتية وهم يسبحون نحو تلك الصخرة، مظهرين براعتهم الشديدة في العوم، فلجأ إلى رمال الشاطئ محاولًا بناء القلعة التي يفشل دائمًا في الوصول بها إلى تلك الصورة التي استقرت في ذهنه.

وبينما هو منهمك من تشكيل الرمل إذ انتبه إلى ذلك الظل الذي يمتد على مقربة منه، مشكلًا هيئة طفلة أنثى ذات شعر قصير يتطاير مع نسيم البحر، فرفع عينيه نحوها ورآها واقفة تنظر إليه باهتمام شديد.

وهكذا تلاقت الأعين الأربع في صمت برهة من الوقت، عيناه السوداوان الضيقتان في مقابل عينيها البنيتين الواسعتين، اللتين استقرتا في ذاك الوجه البريء الناصع شديد الإشراق.

لكنه بعد تلك البرهة ارتبك وخفض بصره في حياء، وبدأ يرمق ظلها بشيء من التوتر، خاصة أنها واصلت وقوفها وتطلعها إليه كأنها تراقب كائنًا غريبًا تراه على الشاطئ، وراحت يداه تعبثان في توتر بتلك الرمال، ونسي ما كان منهمكًا في عمله قبل تلك البرهة.

وبعد لحظات بدأ الظل يتحرك باتجاهه، فازداد توترًا، إنها تقبل نحوه لا شك في هذا، ثم رآها تجثو أمامه وتمد يديها في رمال قلعته، وسمع صوتها الملائكي يقول شيئًا ما استغرق برهة أخرى ليستوعبه، ويمرره على عقله:-

- "أنت تفعل هذا بشكل خاطئ."

كذا قالتها، فرفع عينيه نحوها للمرة الثانية محاولًا استيعاب الموقف، فاستطردت مبتسمة:-

- "دعني أعلمك."

هذه المرة بدأ يتشرب ملامحها بعينيه، إنها طفلة أصغر منه، ربما في العاشرة، عيناها بنيتان جميلتان، شعرها أيضًا بني قصير وخفيف يبعثره الهواء، وجهها ناصع البياض، ملامحها جميلة، أجمل من أي طفلة أخرى رآها في حياته!

وشرعت تشرح له عمليًا كيف يبني قلعته، وهي تتحدث أثناء العمل، لكنه لم يكن منتبهًا لأي شيء مما تقوله، كان لا يزال يحاول استيعاب الموقف، وتشرب ملامحها الدقيقة الرقيقة الصافية، ولم ينتبه إلا وذلك الظل الثالث ينقض عليهما بغتة، وحين رفع رأسه إليه أبصر أخاه وتوءمه (حسن) يقف فوقهما حاجبًا أشعة الشمس عنهما.

هي أيضًا رفعت بصرها نحوه، وبدا في عينيها الدهشة، وقالت في براءة:-

- "إنه يشبهك كثيرًا، من هذا؟"

وجاء الجواب من أخيه (حسن) قائلًا:-

- "إننا توءمان، أنا (حسن) وهو (حسين)، التوائم يتشابهون."

لكنها ظلت تنقل بصرها بين الأخوين بعض الوقت متعجبة من الشبه القوي بينهما، حتى استوعبت الأمر، ثم قالت:-

- "أنا (ريهام).."

وأشارت نحو موضع ما مضيفة:-

- "هذه أسرتي."

وتساءلت:-

- "أين أسرتكما؟"

ثم أضافت سؤالًا جديدًا وهي تضحك:-

- "وكيف يفرقون بينكما؟ أنتما متشابهان جدًا."

التفت الشقيقان معًا إلى حيث أشارت، كانت هناك أسرة تضع مظلة كبيرة، وتلتف حول طاولة صغيرة، ويجلسون على مقاعد الشاطئ المعروفة، وكانت الأسرة تتكون من امرأة ورجل وفتاتان في سن الشباب تقريبًا، وسمعا ذلك الصوت الملائكي يشرح لهما:-

- "هذا أبي، وهذه أمي، وهاتان شقيقتاي (أروى)، و(روان)، هما أكبر مني، وأنا الصغرى."

ثم نظرت تجاه (حسين):-

- "من منكما الأكبر؟"

كانت تنظر إلى (حسين) وهي تلقي سؤالها، لكن الجواب كالعادة أتى من (حسن) أخيه:-

- "لقد ولدنا في نفس اليوم ونفس الساعة، لكن هو سبقني ببضع دقائق، يعني هو الأكبر."

ابتسمت وقالت، وهي لا تزال تنظر إلى (حسين):-

- "لماذا لا تتكلم أنت؟"

لكن (حسين) ظل ينظر إليها كصبي أبله، لا يجيد التحدث.

ثم سمعا صوتًا ينادي عليها باسمها، كانت أمها تناديها لتعطيها حصتها من الطعام الذي كان معهم، إلا أن الصبية قامت وهي تقول بصوت مرتفع وإحدى أصابعها تشير إليهما:-

- "انظري يا أمي إلى هذين الولدين: إنهما متشابهان جدًا."

وتوجهت أنظار الأسرة كلها تجاه الأخوين، فشعر (حسين) بمزيد من التوتر، والتفتت الصبية البريئة نحوهما، قائلة:-

- "هيا بنا إليهم."

لكن (حسين) ظل قابعًا في مكانه لم يتحرك، فنهضت وأمسكت بيد (حسن) وجذبته جذبًا وهي تهرول نحو أسرتها، ومن مكانه استطاع (حسين) أن يرى الترحيب على وجوههم جميعًا، ثم نظروا جميعًا إليه هو، وأشاروا له كي ينضم إليهم، إلا أنه لم يتحرك من مكانه، وسمع أخاه (حسن) يقول:-

- "إنه يخجل من الغرباء."

ضايق هذا التعليق (حسين) كثيرًا، بالرغم من كونه صحيحًا! وتذكر ما كان يقوله أبوه عنه كلما زارهم بعض الضيوف، كان على الفور ينادي (حسن) ليمتعهم بطريقته في التحدث والمزاح التي تسبق سنه، ولا ينسى كل مرة أن يشير نحو (حسين) قائلًا وهو يضحك:-

- "لكن الآخر أبكم..!"

ويضحك الجميع معه، بينما يغالب (حسين) رغبته في البكاء!

في الأيام التالية أصبح (حسن) صديقًا لأفراد تلك الأسرة جميعهم، بل إنه كان يقضي من الوقت معهم أكثر مما يقضيه مع أسرته، وكان يشاركهم الطعام والشراب والضحك والمرح، ويمسك بيد (ريهام) أغلب الوقت، تارة يركض معها على الرمال، وتارة يلهوان في الماء وهو يحاول أن يشجعها على

العوم، وتارة ثالثة يستعرض مهارته في السباحة أمامها وهي تراقبه بإعجاب شديد، بينما (حسين) لا يفعل شيئًا سوى مراقبتهما.

كانت تلك الأسرة تحاول معه يوميًا أن يندمج معهم مثلما فعل أخوه، لكنه كان لا يجسر على ذلك، بل إنه لم يكن يجسر على نطق كلمة واحدة أمامهم، حتى إنهم كانوا يتساءلون دومًا عما إذا كان أبكم أم أنه يجيد النطق، وكان أخوه يقول لهم ضاحكًا:-

- "هو يتكلم معنا نحن فقط، ويخجل من الغرباء."

ومع ذلك ظلت الأسرة طيلة الأيام التالية تحاول أن تنتزع منه أية كلمة تحت أية مناسبة، وكل محاولاتهم باءت بالفشل!

***

كأنه غول عملاق يفغر فاه ليبتلعه، كان (حسين) ينظر إلى البحر وقدماه تغوصان في الرمال كالأوتاد، تأبيان التقدم للأمام!

هذا اليوم قرر (حسين) لأول مرة أن يخاطر بالنزول في الماء، لكن منظر البحر الشاسع الذي يمتد على مرمى البصر بلا نهاية يحطم إرادته ويلجم رغبته في الخوض في مياه، وكان يقول لنفسه ناقمًا: إلى متى سأظل جبانًا؟!

ها هم الفتية من حوله يخوضون في الماء بشجاعة ويضربون مياهه بأذرعهم وأقدامهم كأنهم فرسان يمتطون متن جواد عصيّ عملاق، لكنهم نجحوا في ترويضه وفرض هيمنتهم عليه، لماذا يجبن هو عن فعل ذلك دونهم؟ بل ها هو أخوه توءمه يفعل مثلهم، وكلاهما متماثلان في القوة، لكنهما ليسا متماثلين في العزيمة والشجاعة، إلى متى سيظل هو خائفًا ومحجمًا عن المخاطرة؟

وقرر في هذه اللحظة أن يتغلب على خوفه ولو بشكل تدريجي، سيخوض في الماء هو الآخر، واكتشف في هذه اللحظة أنه بصدد أن يخطو على مخاوفه لا على الماء، وهكذا بدأت قدماه تستردان القدرة على الحركة، ووجد نفسه يتقدم إلى الأمام، الماء البارد يلامس قدميه من أسفل، لكنه لن يتراجع، وسيواصل التقدم، الماء البارد يغمر قدميه ويتصاعد على ساقيه، لا بأس سيواصل التقدم، لن يتراجع الآن، الماء البارد يصل إلى منتصف ساقيه، ثم إلى ركبتيه، لكنه لن يتراجع، وسيواصل التقدم، الماء البارد يصل إلى أعلى فخذيه.. إلى خصره......!

ووجد نفسه يتوقف ها هنا، بالرغم من أن الماء البارد لم يصل إلى صدره بعد لكنه شعر كما لو أن الماء يجثم على أنفاسه ويخنقها، وراودته رغبة قوية في الاكتفاء بهذا الإنجاز والتراجع إلى الشاطئ مرة أخرى، لكنه حاول مقاومة تلك الرغبة، ومواصلة مغامرته، وأخذ يدور ببصره فيما حوله، حيث يوجد عشرات الصبية والفتيان يسبحون في كل ناحية، وشخص ببصره تجاه تلك الصخرة التي لا تزال تقبع بعيدًا عنه، وعشرات الصبية تجمعوا فوقها وحولها، قال لنفسه: لست أقل منهم، يجب أن أواصل التقدم، لكن الغول الأزرق المخيف بدا له يفغر فاه أكثر وأكثر، وتلتمع أنيابه البيضاء في شره!

- "هل تريد الذهاب إلى الصخرة؟"

باغته السؤال، وانتفض وهو ينظر إلى ذلك الشاب مفتول العضلات الذي وقف بجانبه، ولم يرد، فاستطرد ذلك الشاب قائلًا:-

- "هل أحملك إلى هناك؟"

إنه يعرض خدماته بالمجان، ربما استنتج من نظراته الشاخصة تجاه الصخرة رغبة مكتومة في بلوغها، أو ربما هو يحاول استعراض مهارته في

السباحة وهو يحمل شخصًا آخر على ظهره، هذا لا يهم الآن، السؤال الذي شغل عقل (حسين) وقتها: هل بلوغ الصخرة محمولًا بواسطة شخص آخر يعدّ إنجازًا له؟

وقبل أن يصل إلى إجابة فوجئ بذلك الشاب يقف أمامه، ويهوي بركبته في الماء لأسفل ليحاذي رأسه صدر (حسين)، ويمسك بذراعيه وهو خلف ظهره ليلفهما حول عنقه، ويقول له:-

- "تشبث بي جيدًا."

ثم نهض بغتة وهو يحمله وانقض على الماء و(حسين) عالق فوق ظهره، ومضى يسبح بقوة والماء يتناثر على وجهه، ويحاول أن يقتحم فمه، لكنه أغلق فمه وعينيه كي لا يرى ولا يحس ولا يتذوق أي شيء، ومضى يعلو ويهبط فوق ظهر ذلك الشاب، وقلبه يعلو ويهبط داخل صدره من شدة الرعب، حتى بلغا الصخرة بعد دقائق بدت له كالساعات، وثوى فوق الصخرة لاهثًا من الانفعال، وهو لا يزال يتساءل في حيرة: هل بلوغه الصخرة بهذه الكيفية يعدّ إنجازًا له؟

وبينما هو كذلك إذ باغته صوت شقيقه (حسن)، الذي كان يناديه وهو يسبح في الماء باتجاهه، لقد فوجئ برؤيته فوق الصخرة، وحين أقبل عليه وصعد فوق الصخرة والمياه تتقاطر من جسده سأله بحدة:-

- "كيف وصلت إلى هنا؟"

لم يجب (حسين)، ولم يعرف كيف يجيب أصلًا عن هذا السؤال، فلو أنه ذكر الحقيقة سيتبدد هذا الإنجاز، وهو يسعى لأن يكون فخورًا به!

لكن شقيقه عاد يسأله بحدة:-

- "أخبرني كيف ستعود إلى الشاطئ، وأنت لا تجيد العوم؟"

فاجأه هذا السؤال، فهو لم يفكر في هذا الأمر مطلقًا، وهي فعلًا معضلة، فالشاب الذي أتى به إلى هنا اكتفى بهذا ومضى يسبح بعيدًا مع رفاقه، دون أن يبالي بأمره، و(حسن) أخوه لا يستطيع حمله مثله بالرغم من كونه متمرسًا بالعوم، لكنه لا يزال صبيًا أضعف من أن يحمله ويسبح به!

واغرورقت عينا (حسين) بالدموع، وبدأت يشعر بذعر حقيقي، لكن (حسن) ربّت على كتفه، وقال:-

- "لا تخف، سنطلب من أحد الكبار مساعدتنا، استمتع بوقتك الآن.."

ثم وثب في الماء يسبح، وأخذ يدور حول الصخرة وهو يناديه تارة، ويصرخ بلا معنى تارة أخرى، وفي غضون ذلك ويقوم بحركات بهلوانية في الماء، و(حسين) يراقبه بعجز ولا يزال الذعر يتملكه، وأشاح ببصره عنه يبحث عن الفتى الذي حمله إلى هنا، ثم تذكر (ريهام) ذات العينين البنيتين، وتساءل: هل تراها تشاهده وهو هنا؟ وماذا ستقول حين تراه فوق الصخرة؟ هل ستعدّه إنجازًا له، أم أنها ستتساءل عن الطريقة التي جاء بها، وتنتقص هذا الإنجاز؟

كان الفتية حوله يروحون ويجيئون ويقفزون في الماء في صخب، لكن عقله وحواسه بمعزل تام عنهم، كانت عيناه تجوبان الشاطئ بحثًا عنها! ولم يستفق إلا وأحدهم يصيح بجانبه:-

- "إنه يغرق، الولد يغرق.. فلينقذه أحد."

وحين التفت (حسين) إلى حيث يشير الولد، رأى أخاه وتوءمه (حسن) على مسافة بعيدة من الصخرة في عمق البحر يضرب الماء بذراعيه بطريقة مرعبة، ويعلو ويهبط فوق وتحت الماء بطريقة سريعة خاطفة، وفي هذه اللحظة تعالت الصرخات من كل صوب، وكلمة (غريق) تتردد مرارًا، ثم رأى بعض الفتية فوق الصخرة يقفزون في الماء سريعًا، وآخرون كانوا موجودين بالماء فعليًا

يضربون البحر بأذرعهم سباحة نحو الموضع الذي فيه أخوه (حسن)، لكنه كان قد غاص تحت الماء واختفت ضرباته.

الدقائق التالية كانت أكثر رعبًا، القوارب أقبلت من كل صوب بأشكال وأحجام مختلفة، وكثير من الناس يغوصون في الماء يفتشون عن شيء ما، ثم يصعدون إلى الهواء لالتقاط أنفاسهم، قبل أن يعاودوا الكرّة مجددًا، وشقيقه (حسن) اختفى تمامًا تحت الماء بلا أثر، وأصبح الموضع الذي اختفى فيه مزدحمًا للغاية بالناس والقوارب من كل الأعمار.

لا يدري (حسين) كم مر من الوقت حتى رأى بعضهم يرفعون أخاه من تحت الماء ليضعوه على متن أحد القوارب، وكان جسده هامدًا تمامًا بلا أية حركة، ثم انطلق القارب نحو الشاطئ وكثير من الناس يجثمون فوقه لا يدري ما يفعلون بالضبط في الجسد الهامد، ولم ينتبه إلا وأحد الفتية في الماء يشير نحوه قائلًا:-

- "يبدو أنهما توءمان، إنه يشبهه كثيرًا."

وأقبل بعضهم نحوه فوق الصخرة، وتناثرت أسئلتهم حوله كرذاذ البحر: هل هو أخوك؟ أنتما توءمان؟ كم عمركما؟ من جاء بكما إلى هنا؟......، ثم قال أحدهم:-

- "دعوه، إنه في صدمة."

وقال آخر:-

- "هيا نحمله إلى الشاطئ ليكون مع أسرته!"

وهكذا وجد (حسين) نفسه محمولًا مرة أخرى على ظهر أحدهم نحو الشاطئ، وهو يغلق فمه وعينيه كي لا يرى ولا يحس ولا يتذوق أي شيء، حتى وقف على الشاطئ قرب تلك الجمهرة من الناس الذين التفوا على شكل

دائرة واسعة مكتظة، والتقطت أذناه من بين همهمات الجموع صرخات أمه وأخته (نوال) الملتاعة، وصوت أبيه المتهدج وهو ينادي على أخيه (حسن)، ولا يحصل على جواب سوى دعوات الناس له ليتماسك.

والتقطت عيناه صور أخيه الأكبر (أحمد) وهو يبكي، وكذا بعض أبناء عمه وهم يشاركونه البكاء، حتى الغرباء الذين كانوا يتابعون المشهد عن قرب، كان منهم من يبكي، ومنهم يبدو على وجهه علامات الجزع، ومنهم من يواسي الأب والأم!

لكن عينا (حسين) توقفت أخيرًا على صبية بيضاء، ذات شعر بني، كانت تحتضن أمها وتبكي بحرقة، وتتقاطر الدموع من عينيها البنيتين بغزارة، حتى أمها كانت تشاركها البكاء، لكن خيّل لـ (حسين) في تلك اللحظة أنه حتى الدموع التي تنساب من عيني تلك الصغيرة كانت بنيّة اللون!!

***

(٤)

المكان منظم بشكل متناسق، الطاولات متراصة بعناية فائقة، والمسافات بينها مدروسة، الإضاءة أيضًا مناسبة للغاية، ليست ساطعة بشكل مؤذي للعين، ولا هي خافتة بشكل يعيق الرؤية، الهواء داخل المكان معطر بشكل لافت، وزاد من فوحه أنهم اضطروا لإغلاق النوافذ التي قد تسمح بدخول المطر للداخل، كل شيء هنا نظيف ومنظم بشكل فاخر!

فجأة وقعت عينا (حسين) على مجسم ذي حجم كبير يمثل عينًا زرقاء معلقة قرب مدخل المكان، إنه ذلك المجسم المشهور كتميمة ضد الحسد، غريب أن يفكر أصحاب هذا المكان مثل هذا التفكير، وأن يعلقوا مثل هذا المجسم الشعبي في مكان فاخر كهذا، لكن يبدو أن هذه الأمور لها نفوذ حتى على المتحضرين في بلادنا!

– "إنها ليست ضد الحسد فقط."

وأضافت باسمة:–

– "هم يستخدمونها كتميمة مضادة لكل ما هو شرير ومؤذٍ، إنها أشبه بتعويذة قديمة جدًّا، استخدمها الفينيقيون والآشوريون والرومان، ووُجدت في جميع أنحاء الشرق الأوسط، ووفقًا للتاريخ المصري القديم، ترمز خرزة العين الشريرة إلى عين (حورس)؛ الإله الذي يتخذ شكل صقر، وأصبح (حورس) ملك الحياة بعد انتصاره على عدوه (ست)، وعُدَّت عين حورس قادرة على هزيمة النظرة الشريرة، لذا تم رسم عين (حورس) على المقابر والمومياوات من أجل جلب الحظ السعيد إلى أرواح الموتى في رحلتهم إلى الحياة الآخرة، كما رسمها الإغريق القدماء على قوس كل سفينة من سفنهم من أجل حمايتها من

غضب (بوسيدون)؛ إله البحر والعواصف."

إنها فاتنة ومثقفة، من النادر جدًّا أن تجمع امرأة بين الجمال والثقافة، كان صديقه (مروان) يقول: الجمال والمعرفة لا يجتمعان معًا في الأنثى، وأحيانًا كان يقول: الجمال والموهبة، ويدلل على كلامه بأسماء عشرات الكاتبات والمثقفات غير الجميلات، أما الجميلات غير المثقفات فلا يحتجن إلى إثبات، لأنهن في كل مكان حولنا!

- "لماذا هي زرقاء؟ ما سر اللون الأزرق؟"

مطت شفتيها بطريقة ساحرة، وقالت:-

- "لا يوجد شيء حاسم في هذه المسألة، لكن اللون الأزرق لون مقدس في أغلب ثقافات الشعوب القديمة، فهو مرتبط بلون السماء، التي هي رمز للكون والحياة الأبدية، وهو أيضًا لون البحار والأنهار التي ترمز للحياة والنماء".

انقبض قلبه بشدة، هو يكره اللون الأزرق، ويكره البحر، يراه مخيفًا جدًا، إنه أشبه بوحش راقد، لا تدري متى ينشط وينقض على فرائسه، لكنه حين يفعل لا يمكن لأحد أن يصده أو يتغلب عليه، كما أنه وحش جائع دائمًا وأبدًا يحتاج إلى أن يبتلع أحدًا على الدوام، وقد ابتلع أخاه وتوءمه (حسن)!

- "لك شقيق توءم؟"

- "كان.. مات غريقًا وعمره اثنتا عشرة سنة، وقد رأيته بعينيّ وهو يغرق، وعجزت عن إنقاذه ومساعدته، أو حتى عن استدعاء النجدة، ألجمني الخوف والفزع، كنت مجرد صبي صغير لا حيلة له، كانت نزهة عائلية في الشاطئ انتهت بكارثة، ولم نكررها بعدها.."

لا زال (حسين) يتذكر كل شيء.. أمه ترتدي السواد وتبكي معظم الأوقات، يتذكر ذلك الجمع المحتشد حول ذلك الجثمان الصغير الملفوف في ملاءة

زرقاء.. يا إلهي! حتى الملاءة كانت زرقاء فاتحة اللون، كانوا ينظرون إليه بأسف، أكثرهم غرباء جاءوا للنزهة مثلهم، لكن الحزن خيم عليهم جميعًا وبعضهم ذرف دموعه بالفعل!

يتذكر.. أخاه وهو صبي يلعب ويضحك، ويحتفي الجميع بشقاوته وطريقته العذبة في التحدث والمرح، يتذكر تلك المقبرة التي كان أبوه وأمه يصحبانه إليها ويبكيان أمامها! وقد كتب عليها اسم أخيه وتاريخ ميلاده ووفاته، يا إلهي! حتى الكتابة كانت مخطوطة بذلك اللون الأزرق المقيت!

يتذكر جده وهو يمسك بيديه متضرعًا ويقول بصوت متهدج بالحزن واللوعة:-

- "أعد لي الصندوق يا (حسن).. أرجوك!"

لماذا ناداه باسم (حسن)؟ لماذا يصر دائمًا على أن يناديه باسم (حسن) طيلة هذه السنوات؟ لماذا لا ينسى حفيده الغريق مثلما نسيه الجميع حتى أبوه وأمه؟ لماذا؟!

قال بعصبية لا يدري هو نفسه سببها:-

- "أنا أكره اللون الأزرق، هو لون البحر الذي يبتلع الناس والسفن بركابها، لون سيارات الشرطة وعربات الترحيلات، لون ثياب المساجين، قرأت أيضًا ذات مرة أنه لون الشيطان، لست واثقًا، فلم أر شيطانًا من قبل، لكنني أعرف أنه لون سيئ!"

ابتسمت بهدوء وعذوبة وقالت:-

- "حبيبي.. من دلالات اللون الأزرق: التمرد، وهذا ما تفعله أنت الآن، اللون الأزرق يليق بك!"

***

لم يره منذ عدة أسابيع، لكنه فجأة وجده أمامه، وبدت هيئته مختلفة كثيرًا عن النحو المعهود، ثمّ تغير مخيف طرأ عليه!

قال بنبرة غريبة:-

- "(حسين).. من الجيد أني عثرت عليك، أنا بحاجة إليك!"

قالها وكأنه يغالب البكاء، عجيب هذا! (حسين) يعرف (هشام) منذ سنوات بعيدة بالجامعة، (هشام) يكبره بعامين اثنين فقط، وكان يبدو منذ بداية تعارفهما ذلك الشخص الوقور الناضج، المتحكم في حديثه ومشاعره وانفعالاته، وليس من السهل أبدًا التأثير فيه أو عليه.

(هشام) ذو بنية قوية، وقد بدأ الصلع يتسلل إلى مقدمة رأسه، يرتدي نظارة طبية دقيقة، يتكلم دومًا بهدوء وتؤدة، ويمشي بهدوء وتؤدة، ويبتسم بهدوء وتؤدة، ويتصرف دائمًا في كل المواقف بهدوء وتؤدة، لا يذكر (حسين) أنه رآه متوترًا أو عصبيًا إلا في لحظات نادرة جدًا، لكنه هذه المرة يبدو مختلفًا تمامًا.. مختلفًا بشكل مخيف ومزعج، وانتبه (حسين) في تلك اللحظة إلى أنه لم يعد يراه مؤخرًا إلا على فترات متباعدة جدًا!

قال له بصوت خافت وهو يدني وجهه منه كي لا يسمعه أحد سواه:-

- "(هند) تخونني!"

(هند)! احتاج (حسين) برهة من الوقت حتى يستوعب العبارة المباغتة، كانا قد انتقلا إلى مقهى قليل الرواد، وجلسا بزاوية بعيدة عن بقية الزبائن، واختار (هشام) أن يجلس بمواجهته مباشرة ليتحدث، وكان قبلها يتلفت حوله بعصبية مريبة، قبل أن يقول ما قال، ثم أضاف وهو لا يزال يدني وجهه:-

- "نعم تخونني، أنا واثق من هذا!"

لم يعرف (حسين) ماذا يقول له، أو بم يرد على حديثه، لكن على الفور تشكلت في ذهنه صورة (هند) كما رآها مرتين من قبل، البشرة البيضاء الناعمة، القوام الملفوف المثير، الشعر البني الطويل المعقوص من الخلف على هيئة ذيل حصان، لكن أجمل وأبرز ما فيها: العينان الزرقاوان الواسعتان المحاطتان بالأهداب الطويلة، إنها ربة جمال وسحر متجسد، لقد انبهر الجميع بجمالها بمجرد أن وقعت أبصارهم عليها.

كان (هشام) مضربًا عن الزواج حتى قارب الأربعين من العمر، ولم يكترث باستنكار ولا كثرة إلحاح من حوله عن سر عزوفه عن الزواج، بالرغم من أنه يعمل بوظيفة محترمة بقطاع الكهرباء، ولديه شقة لا بأس بها يعيش فيها بمفرده بعد زواج إخوته، حتى فاجأ جميع أصدقائه ومعارفه ذات يوم بدعوة لحضور حفل خطبته، وذهلوا جميعًا لهذا النبأ السعيد، ثم ذهلوا أكثر حين رأوا ربة الجمال التي اقترن بها، وعرفوا أنه صبر ونال أقصى ما يتمناه رجل على هذا الكوكب، وحتى الآن لا أحد منهم يعرف أي شيء عن مقدمات هذه العلاقة: متى عرفها، وأين وكيف، ولا أي شيء على الإطلاق، لكنهم سعدوا كثيرًا من أجله، فهو شخصية محبوبة جدًا.

بعد الزواج لم يعد أحد يراه كثيرًا، وكانوا يلتمسون له العذر، فمن يتزوج ربة جمال كهذه سيعتزل العالم أجمع ويتفرغ لها وحدها، ولن يفكر في مقابلة أحد، لكن (حسين) رآه منذ عدة أشهر بصحبتها، كانت ترتدي ثيابًا يغلب عليها اللون الأزرق الذي يلائم لون عينيها الساحرتين، فكر (حسين) وقتها أن يتجاهلهما ويمضي بعيدًا دفعًا للحرج، لكن (هشام) ناداه وأقبل معها ليسلم عليه، وعرفها به وهو يقول باسمًا:-

-"هذا (حسين) صديقي، أعتقد أنك رأيته من قبل يوم زفافنا."

نظرت هي إلى (حسين) نظرة خاوية بعينيها الزرقاوين الساحرتين وقالت بنبرة لم يحسها (حسين) محببة له:-

- "ربما.. لست أذكر حقيقة."

تضايق (حسين) من هذا لكنه لم يُبدِ لهما شيئًا، ورحب بهما وتبادل مع صديقه حوارًا قصيرًا سريعًا ثم بادر بالانسحاب، بعد أن تولد لديه انطباع غير جيد عن هذه المرأة التي تبدو شديدة الجمال من الخارج، لكنها شديدة الغرور والغطرسة من الداخل، وبعد أن كان يغبط صديقه عليها أصبح يشفق عليه من أجل زواجه بها، إن المرأة الجميلة ليست خالية من العيوب، بل على العكس إن عيوبها تكاد تكون لا تطاق، لكن جمالها وسحرها يخفيان تلك العيوب المقيتة باقتدار.

انتبه (حسين) في هذه اللحظة إلى أن (هشام) لا يزال يدني وجهه منه بصورة مفزعة كأنه ينتظر إجابة منه، فقال بتردد:-

- "كيف عرفت؟! لعلك مخطئ، ربما سوء فهم أو ....!"

قاطعه (هشام) بحدة مباغتة:-

- "أنا متأكد، ولديّ الدليل."

ثم أمسك بجواله بعصبية، وفتح المفكرة الإلكترونية به، ثم شهر الشاشة في وجه (حسين) ليقرأ المكتوب، كانت ثمة أسطر قليلة كتب بها:

- "إلى امرأة بنكهة التوت..

عيناها قطعتا ياقوت!

حين ترتدي الأزرق تبدو كغيمة عطر تلتحف بالسماء،

وأنا الغريق في موجها الهادر،

لكني لا أرجو النجاة!"

بدت له أشبه بخاطرة تقليدية من تلك الخواطر السخيفة التي يكتبها الفتيان على مواقع التواصل الاجتماعي ليقنعوا الآخرين بأنهم أصحاب موهبة أدبية رفيعة، وحرف رقراق، بينما هم في الحقيقة يسرقون من الكتاب الحقيقيين، أو من بعضهم البعض.

قال (حسين) متسائلًا:-

- "من كتب هذا؟"

رد (هشام) بتوتر غريب:-

- "منذ أيام كانت أمها تتصل بها هاتفيًا كأية أم تتصل بابنتها في بيت زوجها، وحين علمت أني موجود بالمنزل طلبت أن تحادثني لترسل تحياتها إليّ مباشرة، (هند) دفعت إليّ الجوال وذهبت إلى المطبخ، أثناء محادثتي وصلت هذه الرسالة فجأة، فقرأتها وحفظتها، كانت مرسلة من حساب وهمي يسمي نفسه (رجل بلا قلب).."

حتى الآن لا يبدو الأمر بهذا السوء، قال له:-

- "ربما هو صديق عبر مواقع التواصل أرسل لها هذه كي ....!"

قاطعه مجددًا بنفس العصبية:-

- "زوجتي زرقاء العينين، وتحب اللون الأزرق في كل شيء، والرسالة مرسلة على الخاص من حساب مقفل لا تظهر عليه أي معلومات، وأهم من ذلك: لا توجد رسائل سابقة لهذه الرسالة!"

حاول (حسين) أن يستوعب هذا المنطق، وقال متسائلًا:-

- "وماذا في ذلك؟ ربما ......"

- "إنها تحذف الرسائل بينهما أولًا بأول.. أفهمت؟ لو لم يكن في الرسائل شيء يدينها ما الذي يجعلها تحذفها؟"

لا، لم يفهم (حسين) بعد، إنه يبالغ في الاتهام، ربما كان شخص يحاول التعرف عليها، أرسل لها هذه الرسالة من حساب وهمي، معظم الفتيان يفعلون هذا على مواقع التواصل، إنهم يبحثون عن التسلية وقضاء الوقت مع الجميلات، ويرسلن الرسائل التي تلفت الانتباه وتغري الفتيات بقبول التعارف!

- "كيف عرف أن الأزرق لونها المفضل؟!"

- "ربما رأى على حسابها ما يشير إلى ذلك، ربما هو عضو معها بإحدى المجموعات، وقرأ لها شيئًا كتبته عن اللون الأزرق، أنت بالتأكيد تعرف ما تنشره على حسابها يمكنك مراجعة الأمر."

لكنه هز رأسه بعصبية، لا يزال مصرًّا على شكه واتهامه، تلفت حوله ليستوثق من عدم وجود من ينصت إليهما، وقال بصوت خافت مشحون بالعصبية:-

- "(هند) تبدو متغيرة منذ فترة، لا أعرف متى بالتحديد، لكني أعرف أنها لم تعد تعاملني معاملة زوجها الحبيب، وصارت تنتقدني في كل شيء، تنام بجواري بالفراش لكن كم من مرة صحوت من نومي لأجدها مستيقظة تمسك الجوال وهي تبتسم، وتبدو مستمتعة جدًا، لم أعط الأمر أهمية في البداية، لكن بعد هذه الرسالة بدأت أراقبها بحذر، وكل الشواهد تشير إلى أنها على علاقة بشخص ما على مواقع التواصل."

حسنٌ، هذا أمر شائع جدًا هذه الأيام، لكن لا داعي لإساءة الظن، كل هذا قابل للتفسير، ربما هي......!

لكنه قطع أفكاره مستطردًا:-

- "كما أنها صارت تخفي الجوال عني بشكل مريب، ولا تدعني ألمسه، وتغلقه برمز أمان لا أعرفه، صدقني إنها على علاقة بأحدهم وتحاول إخفاء

هذه العلاقة بجهد شديد."

قال (حسين) مهدئًا:-

- "(هشام) يا صديقي، من فضلك اسمعني، أنا أعرف حقيقة معاناتك، والسر وراء هذه الشكوك، لقد تزوجت امرأة شديدة الجمال، تصغرك بسنوات عديدة، وترى جميع من حولك يحسدك عليها، وترى في عيونهم نظرات الحقد والحسد والغيرة، وهكذا بدأ يتولد بداخلك إحساس من يملك جوهرة ثمينة يطمع الجميع فيها."

عاد (هشام) يهز رأسه معترضًا، وقال له بحدة:-

- "لا تعاملني كطبيب نفسي، ولو كان الأمر كما تقول لشككت في الآخرين لا فيها هي، من يملك جوهرة ثمينة يخاف عليها من السرقة أو الضياع يرتاب فيمن حوله لا في الجوهرة نفسها."

لكن (حسين) قال مصممًا على نظريتي:-

- "لو كانت جوهرة حية تتنفس وتتحرك وتسحر الآخرين بجمالها لارتاب فيها قطعًا، أما انتقادها لك في كل شيء فهذا طبيعي، يقولون مرآة الحب عمياء، لقد أحبتك وغفلت عن عيوبك، مثلما أنت أحببتها ولم تنتبه لعيوبها، ومع الوقت ذاب الحب مع الاعتياد، وحدث فتور بينكما مثلما يحدث بين جميع الأزواج، فبدأ كلاكما يلتفت لعيوب الآخر، ويكتشف أنها أكثر مما كان يتصور."

أراد (هشام) مجددًا أن يعترض على هذا التفسير، لكن (حسين) لم يعطه الفرصة، واستطرد قائلًا بهدوء وعمق:-

- "وأما ما تفعله على الجوال فالأمر لا يعدو مجرد كونها امرأة لم تتجب بعد، وتشعر بالوحدة وفتور علاقتها الزوجية، وتحاول أن تستعيض عن ذلك

بالترفيه عن نفسها على مواقع التواصل، وتجد بعض المتعة والمرح هناك."

أراد أن يعترض للمرة الثالثة، لكن (حسين) مرة أخرى لم يعطه الفرصة، وواصل قائلًا بذات الهدوء والعمق:-

- "إذا أردت رأيي: تجاوز هذه الشكوك الواهية، واعمل على إذابة الفتور في علاقتكما، خذ إجازة من عملك واصحبها لمكان هادئ تقضيان فيه بعض الوقت سويًا، وتستمتعان بوقتكما فيه، ابحث عن علاج لمشكلة عدم الإنجاب، إذا حملت المرأة وأنجبت أطفالًا تنشغل بهؤلاء الأطفال عن العالم كله، وتنسى أن به رجالًا، إنها تنسى حتى زوجها الذي قذف هؤلاء الأطفال في رحمها."

ما زلت يلمح في وجهه عدم الاقتناع بتلك النظرية، ويصر على نظريته هو، لكن لا بأس، البشر لا يتقبلون ما يعارض تصوراتهم ومعتقداتهم بسهولة، ويحتاجون بعض الوقت للاقتناع بوجهة النظر المعاكسة.

- "فقط كل ما عليك أن تجرب نصيحتي، وتلقي بشكوكك جانبًا وراقب النتائج، وصدقني ستعرف أن ما أقوله لك هو الصواب!"

***

الحب.. الغيرة.. الشك.. الخيانة، كلها مفردات تنبثق من ذات النبع، وكلها تشترك في احتوائها على اللهب الحارق، وفي درجة الغليان، الناس تحب بحرارة، وتغار بلوعة، وتشك بجنون، وتكتوي بلفح الخيانة، ومن العسير جدًا الفصل بين هذه المشاعر والانفعالات.

لكن (حسين) يعود إلى بيته مترنحًا، (هشام) و(هند)، ماذا جرى لهما؟ كانا في نظره أفضل نماذج العشاق وأكثرها واقعية، أهو تأثير حسد الحاسدين؟ هل يعقل أن يفعل الحسد هذا؟

المشكلة أن (حسين) نفسه يعرف أنه أحد هؤلاء الحاسدين، (هشام) بالنسبة له أفضل نموذج للإنسان السعيد الناجح في حياته، (هشام) ولد ونشأ في أسرة ميسورة الحال، حصل على تربية جيدة، وتعليم جيد، وحصل على وظيفة جيدة، ويعيش حياة رائعة، تأخر كثيرًا في الزواج لكنه في النهاية فاز بالحسناء، وحصل على ربة من ربات الجمال والأنوثة الطاغية، (حسين) لا يحسب أن (هشام) واجه مشكلة أو أزمة في حياته كلها، سوى أزمات من نوع أن تنقطع عليه المياه وهو يغتسل، أو يكتشف أن أحد إطارات سيارته مثقوبًا ويفرغ الهواء أثناء القيادة، أو أي شيء من هذا القبيل، لكنه في حقيقة الحال حصل على كل شيء يصبو إليه إنسان طموح متطلع في الحياة.

ربما كانت هذه أول أزمة حقيقية يواجهها في حياته لهذا يعاني في التعامل معها، ولا يعرف كيف يتصرف، ولا يدري ما الإجراء الصحيح الذي ينبغي أن يتخذه، وشكله يبدو أشبه بسمكة غادرت الماء لأول مرة في حياتها وتشعر باختناق يقودها نحو الموت!

(حسين) لا يعرف شيئًا عن (هند) هذه، ولا عن نشأتها وأسرتها، ولم يرها سوى مرات قليلة، وجميع المرات كانت برفقة زوجها (هشام)، وانطباعاته عنها ليست جيدة بالمرة، ولو سلم جدلًا بصحة نظرية (هشام) عن الخيانة فسوف يكون الأمر مثيرًا للتساؤل بشدة: ما الذي يدفع امرأة حسناء متزوجة من رجل ناجح ذي شخصية جيدة وعقل ناضج، مثل (هشام)، لأن تخونه مع شخص آخر؟ إنه حتى ليس شخصًا حقيقيًا، بل هو شخص مجهول يختبئ خلف حساب وهمي، واسم رمزي أو تعبيري غير حقيقي ولا واقعي!

ماذا كان اسمه؟ آه.. (رجل بلا قلب).. يا له من اسم سخيف سمج ثقيل الظل، ينبئ عن شخصية تافهة تدعي العمق والحكمة، ما الذي يدفع رجلًا

لإخفاء شخصيته الحقيقية على مواقع التواصل، ويقدم نفسه للناس باسم رمزي وصورة غير حقيقية سوى رغبته في الإيقاع بالإناث، والحصول على علاقات وهمية على سبيل التسلية؟

ماذا كان اسمه مرة أخرى؟!

ووجد (حسين) جسده ينتفض بقوة.. (رجل بلا قلب).. هذا الوصف مألوف له بشدة، لقد سمعه في مكان ما منذ زمن قريب.. (رجل بلا قلب).. (رجل بلا قلب).. يا إلهي!!

الشعر الأشيب شديد البياض، الوجه الأبيض النحيل المستطيل، النظارة السميكة ذات الإطار الأبيض الغريب، الملابس البيضاء النظيفة: "لكن ماذا لو علمت أني لم أقع في الحب قط، ولا مرة في حياتي؟ بعض أصدقائي المقربين يصفونني بأنني رجل بلا قلب، لكن الحب أيضًا ليس من ضرورات الحياة، ويمكن للإنسان العيش بدونه!"

في الواقع كان كل شيء حولهم لونه أبيض بشكل مريب: الجدران.. المقاعد والأرائك، المزهريات والتحف.. الصينية والأكواب التي عليها.. الستائر والمفارش.. حتى اللوحات المعلقة على الجدران ذات إطارات بيضاء، والرسوم الغريبة نفسها يغلب عليها اللون الأبيض!

يا إلهي إنه هو.. هو! (رمزي طارق)!

وتذكر (حسين) فجأة لقاءهم بـ (رمزي طارق) في بيته، وتذكر أنه وجه كلامه لـ (هشام) مباشرة، وقال له:-

ثم نظر إلى (هشام) تحديدًا ووجّه كلامه إليه مباشرة:-

- "أنت يا (هشام) حسب معلوماتي عثرت مؤخرًا على ذلك الحب الذي كنت تبحث عنه طيلة عمرك، وعلمت أن زوجتك حسناء ذات عينين زرقاوين

وملامح أجنبية، ويفترض أن بها جميع المواصفات التي ينشدها رجل شرقي مثلك، ومن ثم فإن تجربتك مع الحب والزواج هي أكثر التجارب صدقًا، أعني أنك أكثر شخص يمكننا أن نثق في تجربته وحكمه، لذا دعني أسألك مباشرة: هل وجدت الحب والزواج روضة ممطرة فيها من الزهر المتفتح، والأغصان الملتفة، والخضرة والماء والعشب والأريج الفواح، أم أنك انتقلت إلى صحراء جرداء قاحلة، لم تظلل سماءها غمامة بيضاء ممطرة، ولا تشققت أرضها عن عيون وينابيع متدفقة منذ قرون، وليس فيها من مظاهر الحياة سوى سراب خادع؟ هل تكون ذلك الشخص الأمين الذين سيصدقنا القول؟"

إنه هو! هو! لا أحد غيره!

كانت (سيلين) ابنة أخيه (أحمد) عندهم في منزلهم، واختارت غرفته بالذات لتعبث بها، لكنه تجاهل ذلك تمامًا، وألقى نفسه على سريره يفكر في هذه المعضلة، لا شك أنه (رمزي طارق) عرف كيف يتسلل إلى بيت (هشام) ويستدرج زوجته إلى علاقة عبر الشات، إنه أخطر مما يظن بكثير! هذا عمل شيطاني..

وأخذ يسترجع تلك الخاطرة في ذهنه مرارًا: "إلى امرأة بنكهة التوت.. عيناها قطعتا ياقوت! حين ترتدي الأزرق تبدو كغيمة عطر تلتحف بالسماء، وأنا الغريق في موجها الهادر، لكني لا أرجو النجاة!"

وأخذ يرددها بصوت مسموع، لفت انتباه الطفلة (سيلين) فأقبلت ترتمي بجواره على السرير وتسأله في براءة:-

- "ما معنى هذا الكلام يا عمو؟!"

* * *

(٥)

- "تسهر كثيرًا يا حبيبي!"
- "ما الذي يجعلك تعتقدين ذلك؟"
- "ذلك الاحمرار في عيني ك!"
- "حقًا؟"

واستدار (حسين) تلقائيًا تجاه الواجهة الزجاجية التي على يمينه، وبعض الأجزاء منها تعكس الصور كالمرآة، ورأى وجهه واضحًا في أحد الأجزاء، لكن المشكلة أن الإضاءة فوقهم تتخذ اللون الأحمر الباهت، مما يصعب عليه رؤية لون عينيه بشكل دقيق!

الأحمر ليس من الألوان المحببة إلى (حسين)، إنه لون مستفز مثير للتوتر، يرتبط دائمًا بالدم، هو يتفهم لماذا يثير الثيران في تلك الحلبات، بالرغم من أنهم يزعمون أن الثيران لا تميز اللون الأحمر من الأساس، لكنه لا يصدق هذا، حتى لو أثبته العلم، هذا اللون يستفزه هو شخصيًا، ويمكنه أن يرى تأثيره على الثيران دون جهد.

- "حبيبي.. اللون الأحمر يشير إلى الحياة والطاقة، حين يخفق القلب فيتدفق الدم في عروقنا هذا يعني أننا أحياء، وقادرون على الفعل والتأثير، كما أنه لون عاطفي بامتياز، ألا ترى كيف يصطبغ الفالنتين ورموزه به؟ حتى زمن قريب كان الناس يحتفلون بالمناسبات السعيدة عن طريق توزيع الشربات الأحمر على ذويهم!"

كذا أنتِ دائمًا يا حبيبتي، تنظرين دومًا إلى نصف الكوب المليء، لكني لا أرى الأحمر إلا في الإشارات التحذيرية، والدماء التي تسيل على التراب قرب

جثة نازفة، بالإضافة إلى أنه يرمز دائمًا للغضب والانتقام، والطرد والإقصاء، إنه لون مثير للأعصاب بدرجة لا توصف.

وفي هذه اللحظة وثب ذلك المشهد السينمائي إلى ذهنه: "تتناول الحبة الزرقاء تنتهي القصة، تستيقظ في سريرك الخاص، وتعتقد بأي شيء تريد أن تصدقه! تأخذ الحبة الحمراء، تبقى في بلاد العجائب، وسوف أريك مدى عمق جحر الأرانب!"..

ليس اختيارًا صعبًا بالنسبة له لو كان هو البطل، لو كان مكانه لأمسك بالحبة الحمراء دون تردد، وطوّح بها من أقرب نافذة، كي لا يتناولها هو ولا أي أحد آخر، الخيال جميل، الواقع خانق دومًا.

***

فجأة وجده أمامه! لكن للمرة الأولى في حياتهما لم يكن لقاء جيدًا!

صديقه (مروان) ليس على ما يرام، عرف هذا بمجرد أن نظر في عينيه الحمراوين بشكل مخيف، من قبل حتى أن يتحدث ويقول له بصوت مرتعش:-

- "لماذا أشعر به دائمًا داخل رأسي؟"
- "من تقصد؟!"
- "لماذا لا ينفك صوته يهمس في دماغي؟"
- "عمن تتحدث؟!"
- "لماذا تلاحقني دائمًا تلك الأحلام؟"
- "أية أحلام؟! عمّ تتحدث؟"
- "أريده أن يغادر عقلي، فليخرج من دماغي الآن!"
- "يا إلهي عمن تتحدث؟ أنا لا أفهم شيئًا من كلامك!"

ونظر (مروان) إليه بقوة، واتسعت عيناه الحمراوان بشكل مخيف، وأجاب بصوت أشبه بالفحيح:-

- "أتحدث عن (رمزي طارق)! من غيره؟"

وانتفض قلب (حسين) بقوة!

(رمزي طارق) الرجل الأبيض، (مروان) هو من رتب ذلك اللقاء، ووجه إليهم تلك الدعوة، وألح عليهم لقبول دعوته، والآن يبدو كالفأر المذعور، ماذا فعل له (رمزي طارق)؟ لقد كان (حسين) هناك في تلك الجلسة، ولم يحدث ما يسيء، حتى هو (حسين) نفسه - بكل الريبة والمقت الذي يحسه تجاه (رمزي طارق) - لم يجد ما يبرر توجسه منه في ذلك اللقاء!

لكنه فجأة طرأت على ذهنه فكرة، أيعقل أن يكون (مروان) زاره مرة أخرى بمفرده؟

- "مهلًا.. أخبرني بصدق: هل ذهبت إلى ذاك الشخص مجددًا؟ أعني بعد تلك الجلسة التي دعوتنا أنت إليها؟"

أشاح (مروان) بوجهه عنه وهو يرتعد، لكنه بعد برهة عاد يلتفت إليه ويسأله بنبرة غريبة:-

- "نحن صديقان.. ألسنا كذلك؟"

بلى بالتأكيد، وقد مضى على صداقتهما سنوات عديدة، ولا زال (حسين) إلى اليوم يذكر أول مرة التقى (مروان) فيها، كان ذلك في الجامعة، ونشأت الصداقة بينهما سريعًا، كان (حسين) في البداية غير مستريح لـ (مروان) بجسده الضئيل، ونظارته الطبية، وهيئة المثقفين في الكلام واستعراض المعلومات، والاستحواذ على الحديث أغلب الوقت، ومقاطعة المخالفين لرأيه إذا تحدثوا، في الواقع لم يعجب (حسين) هذا السمت، لكنه مع ذلك أدرك طيبة

(مروان) من الداخل، تلك الطيبة التي تجعل منه شخصًا أبله بالرغم من سعة ثقافته.

بعد التخرج أصبح (مروان) رفيقه في رحلة البحث عن عمل، حتى نجح (مروان) وحده في العثور على وظيفة ما، وحاول أن يساعد (حسين) مرارًا في الحصول على وظيفة مماثلة، لكن هذا لم يتحقق بعد، ومع ذلك ظلت صداقتهما ممتدة وازدادت متانة وعمقًا مع الأيام، ولا ينكر (حسين) أن (مروان) هو أكثر من تأثر به من بين جميع أصدقائه.

(مروان) يعرف الكثير جدًا عن الحياة، وهذا ما يجعله أقل اكتراثًا بها، وإدراكًا أنها لا تستحق أن نعاني من أجل الاستمرار فيها، له فلسفة غريبة ومتضاربة، لوهلة تحس أنه يدعو لعدم الانغماس في الحياة وعدم الحرص على الحصول على ملذاتها، وفي لحظات أخرى يدعونا للتمسك بالأمل، وعدم الاستسلام لليأس والإحباط، لذلك – مع (مروان) بالذات – ينبغي أن يكون ذهنك دائمًا يقظًا منتبهًا لكي تستوعب ما يقول، وكان هذا يرهق (حسين) بشدة حتى تعلم مع مرور الوقت ألا يكترث بما يقول!

لكن أكثر ما يكرهه (حسين) في (مروان) كثرة الكلام والثرثرة، فهو يحب دائمًا أن يستحوذ على الحديث في أي مجلس، ولا يدع مجالًا للآخرين حتى لمناقشته، أو تقديم أي طرح حتى لو كان يتوافق مع طرحه، وبما أنه الأكثر ثقافة من بينهم لم يكن بوسع أحد منهم مجاراته في هذا، أو اقتطاع فرصة للتحدث مثله..

بوجه ما، كان (مروان) يذكّر (حسين) دومًا بتوءمه الراحل (حسن)، ويعتقد لو أن شقيقه عاش حتى كبر لكان صورة أخرى من (مروان).

***

لكن الهيئة التي عليها (مروان) الآن غريبة ومريبة، إنه واقع تحت تأثير (رمزي طارق)! وقد فقد زمام نفسه بشكل كلي.

- "عن أي أحلام تتحدث؟"

كذا سأله (حسين) وقلبه يخفق برعب حقيقي، لكن ما أثار رعبه أكثر تلك النظرة في عيني (مروان) شديدتي الاحمرار، وكذا نبرته الغريبة وهو يخاطبه كالشارد قائلًا:-

- "ألا تعرف أنت؟"

عاد (حسين) يسأله مجددًا، ولكن بشيء من الحدة:-

- "أية أحلام تلك؟ تكلم.."

شرع (مروان) يتنفس بصوت مسموع، وارتاح (حسين) كثيرًا لأنه أغلق عينيه الحمراوين، ثم تكلم بعد برهة قائلًا بصوت عميق:-

- "إنها عربة قطار، نعم عربة قطار، المقاعد تشبه مقاعد القطار العادي الرخيص، أيضًا هذا الاهتزاز المتواصل، وصوت احتكاك العجلات بالقضبان، إنها عربة قطار هذا مؤكد، وكانت هي تقف أمامي.."

- "هي؟ هي من؟!"

- "امرأة منتقبة.. لا.. لم يكن نقابًا، بل برقع."

فتح عينيه للحظة وسألني:-

- "هل تعرف البرقع؟ كان النساء يرتدينه قديمًا.."

نعم أعرف البرقع، أكمل حديثك، تبًا لك!

أغمض (مروان) عينيه ثانية، وعاد يتحدث بتلك النبرة الغائرة:-

- "برقع أحمر، وحجاب رأسها كان أحمر أيضًا، كل ثيابها كانت حمراء، وكانت تمسك بصينية كبيرة بكلتا يديها، وفوق الصينية ثمرة تفاح حمراء كبيرة،

وبجوارها ثمرة فلفل أحمر كبيرة أيضًا، الثمرتان حمراوان كبيرتان، أكبر من المعتاد، وخلفها يقف بعض الجنود يرتدون الزي المموه، ويحملون بنادق خلف أكتافهم ويقفون وقفة الانتباه العسكرية، لكن وجوههم كانت حمراء محتقنة بشدة، ثم يتقدم أحدهم وهو يمسك بيده طاقية حمراء من تلك التي يرتديها المحكوم عليهم بالإعدام، ويمد يده بها إليّ لآخذها منه، كأنه يدعوني لارتدائها، في هذه اللحظة أدرك أنني أرتدي ثياب المحكوم عليهم بالإعدام، تلك الثياب ذات اللون الأحمر القاني!"

وارتعدت شفتاه بشدة في تلك اللحظة، وفتح عينيه فرأى (حسين) الدموع تترقرق فيهما، وخيّل إليه أن تلك الدموع حمراء هي الأخرى، فارتعد قلبه بشدة، وشعر بانقباض شديد، لكن كان عليه أن يتماسك!

- "ثم ماذا؟"

لم يرد، وبدا أنه شارد في دنيا أخرى، لكنه انتبه بعد برهة وقال:-

- "لا شيء.. هذا كل شيء.."

قال (حسين) محاولًا الظهور بمظهر الشخص الهادئ غير المكترث:-

- "لا بأس إنه مجرد...."

لكن (مروان) قاطعه قائلًا بحدة:-

- "هذا الحلم لا يفارقني.. أراه كثيرًا كلما استغرقت في النوم.."

ثم تبدلت لهجته إلى نبرة متهدجة بالبكاء:-

- "صرت أخشى أن أنام!!"

استجمع (حسين) أنفاسه، وحاول أن يتمالك أعصابه، ثم أمسك بكتفي (مروان) بنفس طريقة هذا الأخير حين يحادث أحدًا عن قرب، ونظر في عينيه الحمراوين بثبات، وقال له بلهجة حازمة:-

- "صديقي.. إنه مجرد حلم، أو لنقل كابوس، لكنه ليس بهذا السوء، المهم أن تدرك جيدًا أنه مجرد كابوس لا علاقة له بعالمنا الحقيقي، انظر حولك.. لا توجد عربات قطار، ولا نساء ترتدي البرقع الأحمر، ولا مصابيح حمراء، ولا جنود تحمل البنادق، ولا يوجد حتى طواقي حمراء، كل هذا غير حقيقي، كل هذا غير موجود في عالمنا، إنه مجرد حلم سخيف ترك أثرًا بداخلك، وجعل عقلك الباطن يستدعيه باستمرار، وأول خطوات التخلص منه أن تدرك أنه مجرد حلم، غير موجود بعالمنا بالمرة، هل تفهمني؟ أفق لنفسك يا (مروان) ولا تستلم لحلم سخيف لهذا."

لكن (مروان) ظل ينظر إلى (حسين) بثبات، ولم ترق نظراته لذلك الأخير بالمرة، لكنه أدرك في هذه اللحظة أن تأثيره في (مروان) ليس بقوة تأثير هذا الأخير فيه هو! لكنه رأى أيضًا أنه قد قام بواجبه تجاه صديقه، وأن عليه أن يتوقف هنا ويغادر قبل أن يشتد تأثير (مروان) عليه، (حسين) يعلم أن حياته تعسة بما يكفي، ولا ينقصها تلك الكوابيس لتكمل تعاستها..

قال منهيًا المحادثة:-

- "أنصحك يا صديقي باللجوء إلى طبيب، سوف يساعدك أكثر.."

ثم استدار وابتعد عنه بخطوات سريعة، لكنه لم يكد يبتعد بضعة أمتار حتى سمع (مروان) يناديه، فتوقف (حسين) والتفت إليه متوجسًا، وقلبه يخفق بطريقة غير عادية.

كان (مروان) لا يزال يقف في نفس موضعه لم يتحرك، ولا يزال ينظر إلى (حسين) تلك النظرة الثابتة غير المريحة، ثم قال بذات الصوت الغائر:-

- "كيف عرفت بأمر المصباح الأحمر؟"

ماذا؟!

– "أنت قلت: لا توجد مصابيح حمراء، لقد قصصت عليك الحلم، لكني نسيت أن أذكر المصباح الأحمر الذي يتدلى من سقف العربة، أنا واثق من أني لم أذكر هذا! كيف علمت أنت به؟!"

– "...............................!!"

***

(٦)

زخات المطر تتواصل، سيمفونية الصخب تحافظ على وتيرتها، نقرات الماء على الزجاج، نفير السيارات التي تحاول تفادي الانزلاق والاصطدام، موسيقى راقصة لإحدى أغاني المهرجانات تزيد الأجواء صخبًا، يرسل نظرة عبر الزجاج، بالخارج تقف سيارة إسعاف صفراء اللون، لماذا اختاروا هذا اللون لسيارات الإسعاف؟ لا يراه مناسبًا أبدًا لوظيفة تلك السيارات!

قالت له، وهي تحدق في عينيه:-

- "اللون الأصفر يرمز للتوهج والإشراق؛ لأنّه لون أشعة الشمس ومصدر الضوء، وقد استخدمه المصريون القدماء للإشارة إلى آلهة الشمس، وكذلك للوقاية من المرض."

آها.. هذا هو السبب إذن!

أضافت في نعومة:-

- "في الواقع هو يشير إلى أشياء كثيرة مبهجة، الثراء مثلًا لأنه لون الذهب، الطاقة والحيوية، وكذلك الدفء والسطوع لأنه لون الشمس، أنا أحب اللون الأصفر، ماذا عنك؟"

ماذا عني؟ سؤال محرج للغاية!

هو يمقت اللون الأصفر، إنه في نظره يشير إلى الذبول والموت، الزرع يكون أخضر في عنفوانه، ثم يصير إلى الأصفر عندما يذبل وييبس.

الأصفر أيضًا يشير إلى النفاق والمداهنة والاحتيال، ابتسامة المنافقين توصف بالصفراء دومًا.

لكنها تصر على منطقها:-

– "حبيبي.. القمح الذي هو أهم نبات نعتمد عليه في حياتنا حينما ينضج يصير أصفر، الموز كذلك، تعلم أني أحب الموز كثيرًا، سهل التقشير، وخالٍ من البذور، طري في الفم، ولا يحتاج حتى لأن يغسل، ليت كل الأشياء في حياتنا بهذه السلاسة!"

ربما معها حق، لكنها تغفل عن شيء في غاية الأهمية، الموز يتلف بسرعة، لا داعي لأن يصدمها بآرائه وقناعاته، هي تحب اللون الأصفر، ليكن.. سوف يحبه هو أيضًا من أجلها، لن يرفض أي شيء تميل إليه.

– "يروقني استعدادك للتجاوب معي، وقبول فلسفتي."

– "أنا أكره الرفض."

– "الرفض شيء جميل في حد ذاته، إنه يشير إلى التمرد."

– "لست متمردًا، لكني أتفق معك، أحيانًا لا يكون الرفض شيئًا سيئًا.."

– "هل هذا رأيك حقيقة أم أنك تجاريني؟"

مممم.. في الحقيقة لست واثقًا!

***

– "عمرك ثمانية وثلاثون عامًا؟"

لم يفاجئه صوتها العذب، صحيح أن ملامحها دقيقة وجميلة إلى حد كبير، لكنها – لسبب ما – تصر على الاتسام بهذا السمت الذكوري المتسلط: الحاجبين العريضين، النظارة الطبية السميكة، النظرات الحادة الصارمة، الشفتين الحادتين المزمومتين، حتى الثياب التي ترتديها تشابه ملابس الرجال: القميص الأصفر الوهاج بأزراره الصغيرة، ورابطة العنق الغامقة، التي لا يستطيع تحديد لونها، وخلفها على المكتب توجد ستزة بنفس اللون الغامق الذي لا أستطيع تحديده..

باختصار إنها أنثى جميلة تسعى لأن تكون مستر (جيكل)، وهذا يوحي مبكرًا بنتيجة غير مرضية.. اسمها (رحيل)، كذا سمع الرجل الذي يجلس قريبًا منها يناديها مصحوبًا بلقب (أستاذة)، هو يبدو أكبر منها عمرًا، لكن من المؤكد أنها هي في وضع الآمر لا هو.

- "هل من مشكلة في هذا؟"

قالها متوجسًا، بصراحة لم يكن يتوقع أن يكون الـ HR أنثى، على يمينها يجلس رجل ضئيل الجسد لا يتحدث مطلقًا لكنه يسدد بصره تجاهه بطريقة مقلقة، وأمامه بعض الأوراق ينظر فيها نظرات خاطفة قبل أن يعاود تسديد نظراته تجاهه.

حتى الآن لا يعرف ما إذا كان هذا في صالحه أم العكس، لكنه أحس بالقلق لأنها استغرقت وقتًا طويلًا وهي تتفحص أوراقه باهتمام شديد، قبل أن ترفع أخيرًا عينيها لتسددها تجاهه قائلة بجمود:-

- "في الواقع نريد أشخاصًا أصغر سنًا."

صدمه كلامها هذا أكثر من نظراتها ونبرتها الجامدة، لكنه قال بحذر:-

- "الإعلان لم يحدد السن، ثم إنها وظيفة مكتبية أو إدارية حسبما أعتقد، ولن أكون مطالبًا فيها بالركض، أليس كذلك؟"

لكنها ظلت تنظر إليه بجمود للحظات، قبل أن تعود لتتصفح الأوراق مرة أخرى في صمت وتركيز!

لون الجدران أصفر، لماذا يصرون جميعًا على طلاء الجدران بهذا اللون البغيض؟ في مبنى الكلية – وقتما كان يدرس هناك – كان طلاء الجدران أصفر أيضًا، وحين التحق بالجيش كان المبنى الذي قضى مدة تجنيده القصيرة به مطليًا باللون الأصفر، معظم الأماكن التي ارتادها لمختلف

الأغراض تستعمل ذات اللون، تذكر زميلته بالجامعة (سمر)، كانت تسخر من جهلهم بالألوان، وكانت تشير إلى طلاء الجدران من خلفهم قائلة:-

-"ليس أصفر، إنه بامبلبي!"

وتضحك هازئة، إنها تتحدث مثل أخته (نوال)، بامبلبي؟ أي لون هذا، بالطبع لم يكن بارعًا - مثل أكثر الرجال - في التمييز بين الألوان إلى هذه الدرجة، الرجال عادة لا يعرفون سوى ألوان الطيف الأساسية بالإضافة إلى الأسود والبني.

لكنه يذكر أنه في فترة ما عمل لفترة قصيرة نادلًا بأحد المطاعم، وكانوا يطلون الجدران بذات اللون الأصفر أو البامبلبي، ليس واثقًا.. وقتها بالصدفة استرقت السمع إلى بعض النسوة الثريات التافهات، وهن يتناقشن حول بعض ألوان الروج والمانيكير أثناء تناول الطعام، وأعربت إحداهن عن إعجابها باللون البامبلبي، وذكرت أنها تود أن تطلي به شفتيها وأظافرها، ولم يرق هذا للأخريات، لكنه لم يلبث أن طُرد من تلك الوظيفة.

هو لم يشاهد من قبل امرأة تضع روجًا أو مانيكيرًا بلون البمبلبي، وهذه المرأة المتزمتة - التي تجلس أمامه الآن تناقشه في مؤهلاته - لا تضع أي روج أو مانيكير على الإطلاق، كأنها تريد التخلص من مظاهر الأنوثة بأكملها!

لقد تقدم لثلاث وظائف هذا العام وتم رفضه منها جميعًا، ويبدو له أن الأمور تسير باتجاه الرفض في هذه المقابلة أيضًا.

بعد برهة سددت نظرها نحوه مجددًا وتساءلت:-

- "ما المهارات التي تملكها؟ لا يوجد شيء في الأوراق!"

- "عن أي مهارات تتحدثين؟!"

كانت أعصابه في طريقها للانفلات، هذه المرأة شديدة التزمت، تبدو كما لو كانت تبحث عن مبرر لطرده، وكل مرة تشير إلى نقطة غريبة لم يتوقعها، بينما انعقد حاجباها في حدة أكثر، وحدجته بنظرة أشد صرامة، ثم قالت:-

- "ليس لديك أي مهارات! كيف تطمع في نيل هذه الوظيفة إذن؟"

قال محاولًا السيطرة على هدوئه وأعصابه:-

- "أنتم نشرتم إعلانًا تطلبون فيه موظفين، دون أن تحددوا تخصصات بعينها، ومؤهلي الدراسي ربما يكون مناسبًا، لهذا جئت إليكم، وهذا كل ما أملكه: المؤهل الدراسي والأمل!"

هذه هي الحقيقة على أية حال، لكنه لا يتوقع أن تروقها تلك الحقيقة، منذ متى أعجبت الحقيقة الناس؟

ظلت تسدد إليه تلك النظرة الصارمة برهة من الوقت، ثم تراجعت بظهرها إلى الخلف، وقالت:-

- "أتدري: حتى الآن تقدم لنيل هذه الوظيفة أكثر من مائتي شخص، وما زال هناك المزيد، ونحن بحاجة إلى عدد محدود لا يتخطى عدد أصابع يديك! ينبغي أن يكون لديك ما هو أكثر من التخصص والأمل الواهي، لا بد من وجود شيء يغرينا باختيارك دون الباقين!"

رد في ثبات:-

- "هذا محبط، لكني حقًا لا أملك أي شيء زيادة على المؤهل الدراسي والأمل، ولا أعرف كيف أظهر لكم كفاءة لا أمتلكها كي أنال إعجابكم! ليس أمامي خيار سوى قول الحقيقة، والرهان عليها!"

الصمت من جديد..

لا يدري أيهما يثير أعصابه أكثر: نبرتها الجافة، أم نظراتها الحادة، أم أسلوبها الجامد المتزمت!

لكنها قالت بعد قليل:-

- "للأسف.. الأمور هنا لا تدار بهذه الطريقة، ولا في الحياة عمومًا!"

هذا ما توقعه على أية حال، العبارة تنذر بانتهاء المقابلة تلك النهاية التي لم يكن يصبو إليها لكنه يتوقعها كل مرة، الرفض من جديد، هل هذا هو مصيره في جميع محاولاته للحصول على عمل شريف؟ هل هو مطالب بالتوجه للسرقة مثلًا ليكون صاحب دخل يعول به نفسه؟ لكنه يشك حتى في قدرته على النجاح في السرقة.

يتذكر صديقه المتفلسف (مروان) وهو يؤكد مرارًا أننا نتعرض للسرقة في جميع الأحوال، الزمن يسرقنا، الحلم والأمل يسرقاننا، اللهو يسرقنا، ولكي ننجو من السرقة علينا أن نتعلمها ونجيدها..

تذكر تلك النظارة الطبية سميكة العدسات، النظرات الزائغة، الشعر الأشعث، الجسد الضئيل، النبرة المتغيرة بشكل فجائي، يكون هادئًا ويتحدث بعمق وتؤدة، وفجأة يتوتر ويتحدث بعصبية، ويتناثر الرذاذ من فمه وهو يتحدث، ولديه عادة مزعجة للغاية: أنه يحب أن يضع يده – وأحيانًا كلتا يديه – على ذراع أو كتف المخاطب، والنظر في عينيه مباشرة وهو يخاطبه، (حسين) لا يحب أن يمسك به أحدهم ليجبره على الاستماع إليه، ولا يحب أن ينظر أحد في عينيه مباشرة أثناء الحديث.

لكن (مروان) قبض على ذراعيه بقوة، ونظر في عينيه مباشرة، واتسعت عيناه بشدة خلف عدسات النظارة، وقال له:-

– "نحن نعيش العمر نلهث من أجل شيء ما، نلهث لكي ندرس ونحصل على شهادة، ثم نلهث لنحصل على وظيفة، ثم نلهث لنحصل على زوجة ونتحمل كلفة الزواج بها، ثم نلهث لننجب أطفالًا وننفق عليهم حتى يكبروا، ونلهث لنساعدهم على إعادة تلك الدورة التي خضناها قبلهم، وهكذا نظل نلهث من شيء ما إلى آخر، ولا نستريح إلا بالموت، هل تودّ أن تعيش هكذا؟"

تبًا له هو الآخر! (حسين) يمقت هؤلاء المتفلسفين، ربما بدا كلامه منطقيًا هذه المرة، لكن ما الخيار البديل؟ أن نقبع في السرير ننتظر الفرج حتى يأتي من نفسه، أم نسيح في البراري، أو نعتكف في الصوامع؟

مشكلة (مروان) وأمثاله أنهم يهدمون دون أن يبنوا شيئًا، يعترضون على الوضع القائم دون أن يصوغوا بدائل له، (حسين) وأمثاله لا يكترثون بهذا التوجه مهما كان منطقيًا، لقد لهث حتى حصل على شهادة جامعية، والآن هو يلهث من أجل الحصول على وظيفة، عمل في أكثر من مهنة تافهة أو حقيرة لا ترضي طموحاته وتطلعاته، ومع ذلك لم يستمر في أي منها، وها هو يتقدم لنيل وظيفة جديدة، لكن عليه أن يقنع هذه المرأة المتزمتة بأنه يصلح لها، إلا أن الأمور كما هو واضح أخذت الاتجاه المعاكس!

– "هل هذا يعني أني مرفوض؟"

– "أنت من تقودنا إلى هذا الخيار بكل أسف."

وشرعت تعيد الأوراق داخل المغلف البلاستيكي، ثم مدت يدها به تجاهه كي يتناوله منها، بالطبع كانت هذه إشارة واضحة إلى انتهاء المقابلة، وبالطبع هذا يعني ظهور النتيجة مبكرًا للغاية!

إحباط جديد، يفترض أن يكون قد اعتاده، لكنه يحمل نفس المرارة كل مرة، ويبث في قلبه الوهن، وقد وجد صعوبة في حمل جسده على النهوض.

تناول منها المغلف الذي يحوي أوراقه، وقال وهو يهمّ بالانصراف:-

- "كنت أحسب أني متقدم لوظيفة، لا إلى خطبة عروس، ماذا يعنيكم من مهاراتي في وظيفة مكتبية؟"

لا بأس ما دام الأمر المكروه قد وقع، فليقل ما يجيش بنفسه، فليس لديه ما يخسره الآن.. توقع أنها لن تجيب، واستدار بكامل جذعه للانصراف، لكنه فوجئ بها تقول:-

- "صدقني لو أنك كنت تقدمت لخطبتي بهذه الطريقة لقبلت.."

تسمر في مكانه، وعاد يلتفت إليها متفاجئًا، فقالت موضحة:-

- "أنت لا تعرف كم هو صعب على الأنثى في بلادنا أن تعثر على رجل لا يتظاهر بأنه الأفضل، أو أنه يعرف كل شيء!"

فاجأه هذا أيضًا، وتحير في الرد، لكنه بنظرة خاطفة انتبه لتلك الحلقة الذهبية التي تحيط بإحدى أصابع يدها اليمنى، إنها مخطوبة، لم ينتبه لهذا سوى الآن، ووجد نفسه يقول:-

- "إما أنك عثرتِ عليه بالفعل، أو أنك تنازلتِ عن هذا الخيار.."

نظرت إليه بصمت، جعله يعتقد أنه هو الذي فاجأها هذه المرة، وهز كتفيه مستطردًا:-

- "لكنه -على أية حال- أفضل رفض حظيت به في حياتي.. شكرًا لك!"

ثم غادر المكان في هدوء!

بامبلبي.. إنه لون يليق بمصحة عقلية، لا شركة استثمارية محترمة، من الأبله الذي فكر في اختيار هذا اللون؟!

***

الفصل الثالث

شَـظَـايَـا

(١)

رسائل، رسائل.. غيث ينهمر طوال الوقت، كل الناس تعاني، كل الناس تبحث عن حل، كل الناس تبحث عن الخلاص.

الإنسان في هذا الزمان يئن على جميع المستويات، ويجرّ خلفه ظلالًا ثقيلة من القلق الوجودي، وكأنه يسير فوق حبل مشدود بين الحاجة إلى البقاء والحنين إلى الطمأنينة المفقودة، حتى العلاقات الإنسانية لم تعد ملاذًا دافئًا كما كانت، بل تحوّلت إلى شبكة متداخلة من المصالح والتوقعات والخذلان، يُخشى الوقوع في أحد خيوطها أكثر مما يُرجى النجاة منها.. الأصدقاء صاروا غرباء، والأحبة مرآة للخذلان المؤجل، والعائلة جغرافيا من الصمت والواجب، لم يعد للإنسان ملاذ حقيقي، حتى الحب، ذلك المعنى الذي كان يشعل الأرواح، أصبح مرادفًا للقلق؛ يخشى المرء أن يمنحه، كما يخاف أن يُحرم منه، إنها معاناة صامتة، لكنها تنخر القلب بنعومة السكين البارد.

رسائل، رسائل.. فيض من القلق والخوف والغضب المجسد في حروف لا ينقطع..

في البدء جاءتني رسالة من مجهول: يشكو فيه من سوء معاملة زوجته له، بالرغم من أنه يوفر لها كل ما تحتاجه، وكل ما تحلم به أية فتاة مصرية من الطبقة الفقيرة والمتوسطة، ويختم رسالته بتوقيع (N)، وهي عادة مألوفة لدى الشباب هذه الأيام، حيث يميلون دومًا لاستخدام الحروف الإنجليزية بدلًا من العربية.

بالنسبة لي لم تكن رسالة ذات أهمية كبرى، مجرد زوج يعاني تسلط زوجته وسوء طباعها، من واقع رؤيتي للحياة والناس من حولي أكاد أجزم أن ٨٠ %

من الأزواج – إن لم يكن أكثر – يعانون ذات المشكلة، الأنثى بطبيعتها كائن رقيق وضعيف ظاهريًا فقط، لكنها تملك بداخلها من القوة والشراسة والقدرة على السيطرة ما لم يمكن لأي رجل مواجهته، أو الصمود أمامه، وهي تعرف جيدًا كيف تقتنص الرجل، وكيف تحكم سيطرتها عليه بشكل غريزي، فلا تحتاج لأن يعلمها أحد كيف تفعل هذا، هل يحتاج النمر لمن يعلمه القنص والافتراس؟

على كل حال قمت بعرض الرسالة بمجموعة الاعترافات والمشاكل التي أديرها، ولم تلق اهتمامًا كبيرًا، لأنها مشكلة معتادة، وأغلب التعليقات كانت تسخر من ضعف شخصية الزوج، وبعض التعليقات توجهت إلى إرشاد الزوج كيف يحتوي زوجته، وكيف يستميل قلبها، ونصحه البعض بأن يجلب لها بعض الهدايا من حين لآخر، وأن يخرج معها للتنزه على فترات متقاربة، فالأنثى تحب الهدايا والمفاجآت السارة، والخروج للنزهة والتسوق من آن لآخر، وما شابه ذلك من توجيهات.

لكن لم تمض فترة حتى جاءتني رسالة أخرى تحمل نفس التوقيع، مفادها: أنه فعل كل ما نصحوه به ولم يجد أي تغير على زوجته، بل ازداد الأمر سوءًا بالنسبة له برفضها المتكرر أن تمنحه حقه الشرعي في جسدها، وإذا وافقت فإنها تمارس الأمر معه كتأدية واجب لا أكثر، دون أن تظهر استمتاعًا بالأمر، هذا بخلاف انتقادها الدائم له، وختم الرسالة بأنه يعيش في جحيم حقيقي، ولا يدري كيف يتخلص منه، وأنه يفكر جديًا في تطليقها، لكنه لا يملك الشجاعة الكافية لاتخاذ هذا الإجراء، ويخشى الندم عليه.

حسنٌ، هذه المرة قررت أن أنقل المشكلة إلى برنامجي على (بودكاست)، وكان في ضيافتي صديق عزيز يعمل بمحكمة الأسرة، وقد استنتج ضيفي من

محتوى الرسالة أن صاحب المشكلة لم يرزق بأطفال بعد، ولعل هذا هو سر حنق الزوجة وسخطها الدائم، ونصح الزوج بأن يبحث عن علاج طبي لهذه المشكلة، بما يوحي بأن عدم الحمل والإنجاب هما سبب المشكلة ابتداء، وأن علاج هذه المشكلة طبيًا سيؤدي إلى علاج طباع الزوجة بالتبعية، وأنا بدوري نصحت الزوج بالتحمل، والتحلي بمزيد من الصبر، واستعمال الدبلوماسية مع الزوجة، حتى يتمكن من علاج مشكلة الإنجاب.

كنت قد نويت بعدها أن أتجاهل أية رسالة تحمل توقيع هذا الشخص، من منطلق أننا قلنا له كل ما ينبغي قوله، وليس لدينا المزيد من أجله، حتى تفاجأت ذات مرة برسالة تحمل ذات التوقيع تقول:-

- "أنت وضيفك غبيان، من قال إني لم أنجب أطفالًا، فلدينا طفل بالفعل، المشكلة ليست في الإنجاب، ولا فيّ أنا ومعاملتي لها، لقد عرفت السر.. إنها خائنة، خائنة.. على علاقة برجل آخر، ومن يكون؟ إنه صديق عمري.. صديق عمري يخونني مع زوجتي، ويضاجعها على فراشي في غيابي، إنهما يستحقان الموت، وسوف أقتلهما معًا.. يجب.. (N)"

***

(٢)

إنها قداحة ذات لون ذهبي، مزدوجة اللهب، ذات غطاء على شكل نسر ثلاثي الأبعاد، لا يوجد عليها رسوم ولا زخارف، لكنها أنيقة بشكل لافت، مقاومة للتسرب، ومتينة، خفيفة الوزن.

لا يعرف من أين حصل صديقه عليها، لكنها جذبت انتباه (نادر) بشكل قوي، وودّ لو امتلك واحدة مثلها، لذا سأل صديقه مباشرة:-

- "من أين حصلت عليها؟"

وضع (حازم) مبسم السيجارة ذات الفلتر الأحمر بين شفتيه، وأشعل مقدمتها بالقداحة الأنيقة، وتناثر بعض الشرر حين أشعلها، مثل الشظايا الدقيقة التي لم تلبث أن انطفأت في الفراغ، ونفث الدخان كثيفًا من أنفه وفمه، قبل أن يجيب بغير اكتراث:-

- "إنها هدية."

تساءل (نادر) بفضول ملحوظ:-

- "ممن؟"

التفت إليه (حازم) باسمًا، وغمز بعينه بخبث، وأجاب:-

- "من إحداهنّ."

وفهم (نادر) المقصود، يريد أن يقول من إحدى عشيقاته، فـ (حازم) زير نساء كبير، ولديه ولع شديد بإقامة علاقات مع النسوة المتزوجات، واستغنى بتلك العلاقات عن الزواج.

لكن ما ضايق (نادر) حقًا: أن القداحة هدية، بما يعني أنه لا يمكنه أن يطلبها منه، ولا حتى سيعرف أين يمكنه الحصول على مثلها، قال له (حازم)

متعجبًا:-

- "ما حاجتك إليها؟ أنت لا تدخن."

لم يرد (نادر) واكتفى بهز كتفيه دون معنى، فغيّر (حازم) دفة الحديث متسائلًا:-

- "هل ستذهب إلى الحفل الليلة؟"

- "بالتأكيد.. لا يمكنني أن أتخلف عن الحضور، إنها المرة الأولى التي تدعونا فيها إلى بيتها، وسيحضر معظم الزملاء."

غمز (حازم) بعينه، ثم قال:-

- "لكني سأتخلف عن الدعوة، فلديّ موعد هام جدًا مع إحداهن."

هز (نادر) كتفيه مرة أخرى بغير اكتراث، وشرع يفكر في زوجته التي تصر على عدم الذهاب معه، بالرغم من توسلاته، خاصة أن معظم الموظفين سيصحبون زوجاتهم معهم، عدا هو، ولا يعرف طريقة لإقناعها.

زفر بعض الهواء الساخن من جوفه، وقال بصوت مسموع:-

- "آه يا (ريم)، لو تعلمين كم أحبك!"

***

أول شيء يمكنك أن تلحظه في شاب مثل (نادر مسعود): ذلك الطول الفارع، فقد كان يقارب المتر والتسعين سنتيمترًا، ومع نحوله الشديد يبدو ذلك الطول الفارع بارزًا بوضوح، أما بقية ملامحه فليس فيها شيء يلفت الانتباه، كان شابًا عاديًا ذا ملامح اعتيادية في كل شيء، الوجه النحيل، والشعر الأكرث، والعينين العسليتين، والبشرة البيضاء.

لكن من يقترب من (نادر مسعود) ويتعامل معه بشكل مباشر سوف ينتبه لصفة أخرى معنوية تبدو أشد بروزًا فيه من أي صفة أخرى: وهي الوداعة!

نعم، لقد كان (نادر مسعود) مثالًا للشاب الطيب الوديع المسالم الذي لا يمكنك أن تراه غاضبًا أو حانقًا على شيء، ولا يمكنك حتى أن تتخيله يتعارك مع أحد ولو باللسان، أو أن تصدر منه أية إساءة ضد أحد، وهذا ما يجعله محبوبًا من الجميع، وإن كان هذا يعرضه للتنمر طوال الوقت من الأصدقاء ومن سواهم، وهم مطمئنون إلى أنه لن يتخذ أي رد فعل يردعهم.

(نادر) حصل على ليسانس الحقوق، ثم عمل بوظيفة جيدة بالشئون القانونية بإحدى الشركات الخاصة، حصل عليها بالواسطة، وقد تزوج من امرأة حسناء جدًا اسمها (ريم) قبل ثلاثة أعوام، وأنجب منها طفلًا، والجميع يدركون أنه يعيش أفضل حياة يمكن أن يحياها زوج شاب في بلادنا.

(نادر) له صديق مقرب يدعى (حازم)، بالنسبة له هو رفيق الصبا والشباب، وزميل الدراسة، إلا أنه يعمل بالنهار بوظيفة بسيطة بالسجل المدني، وبالليل يعمل في أشياء كثيرة لا أحد يعرف كنهها على وجه التحديد، لكن من الواضح أنه يحصل على دخل جيد منها، وهو على النقيض تمامًا من (نادر)، هما يبدوان معًا أشبه ببطلي فيلم (**Fight Club**) قبل أن نكتشف أنهما شخص واحد، وبالطبع كان (حازم) يمثل شخصية (تايلور ديردن) الشاب الجريء، الذي يسيطر على كل شيء، ويفعل كل ما يحلو له، بعكس (نادر) الوديع المتردد بالرغم من ذكائه الشديد.

(حازم) لم يتزوج، لكن الجميع يعرف أنه زير نساء، ولا يكاد يمر عليه أسبوع دون أن يتعرف على عشيقة جديدة، وعلاقاته تصل دائمًا مع كل واحدة منهن إلى الفراش، أما (نادر) فلا أحد يعرف عنه أنه كان على علاقة بأية امرأة طيلة حياته، وحتى زواجه من تلك الحسناء تم بطريقة الصالونات، بدأ بترشيح من بعض الأقارب، وتحمست لها أسرته، ونقلوا حماسهم إلى (نادر)

نفسه، فتم الزواج في زمن قياسي.

(نادر) شخص خجول وانطوائي بطبعه، لكنه أيضًا شديد الذكاء، وإن كان لا يبدو عليه ذلك لشدة وداعته، وهو مع ذلك مجتهد في عمله، وشديد الإخلاص لأصدقائه، إنه شخصية أقرب للمثالية من الناحية الخلقية، وإن كان البعض يعتبر وداعته الشديدة عيبًا لا مزية.

الجميع يعتقدون – بل يثقون – بأن (نادر) يعيش حياة وردية، يعمل بوظيفة جيدة، ويتقاضى راتبًا كبيرًا، ويسكن في شقة تمليك بأحد الأحياء الجديدة، ومتزوج من امرأة حسناء، ما الذي يجعل أي شخص يعرف (نادر) أن يعتقد أن حياته هذه ليست وردية؟

في الواقع.. الشخص الوحيد الذي كان يعتقد أنها حياة ليست وردية: هو (نادر) نفسه!

***

(٣)

كعادته كل صباح ينهض (نادر) على أمل، يغادر غرفته إلى الحمام، ثم إلى المطبخ، ويُعد الإفطار بالطريقة التي تحبها زوجته، ثم يحمله إليها ليضعه بجوار سريرها وهي لا تزال نائمة، ولا ينسى أن يضع قبلة رقيقة على شفتيها دون أن يوقظها، لأنها تغضب بشدة حين يوقظها، وإن كان يتمنى أن تستيقظ لتتلقف قبلته وهي واعية وتبتسم، لكن هذا لا يحدث أبدًا.

يقول لها وهي تغط في النوم دون أن تسمعه:-

- "صباح الخير يا عمري، الإفطار جاهز متى تستيقظين."

ثم يجلس ليتناول إفطاره هو على عجل، ثم يقوم ليستبدل ثيابه، ولا ينسى أن يعود إليها ليضع قبلة أخرى رقيقة على شفتيها، قبل أن يغادر إلى عمله وقلبه يخفق من الإحباط واليأس.

***

انتظار..

يا لها كلمة بسيطة في تركيبها، لكنها معقدة جدًا في تأثيرها!

ما الانتظار؟ أن تضع فنجان القهوة أمامك، وتترك الكرسي المقابل فارغًا، كأنك توهم الغياب بأنه سيخجل من تماديه ويعود.. أن تراقب عقارب الساعة لا لتعرف الوقت، بل لتتأكد أن الزمن ما زال يسير، بالرغم من أن حياتك متوقفة عند لحظة بعينها!

لا، (نادر) لا يشعر بأي من هذا، لكنه يعرف أن الانتظار يشبه بابًا موصدًا في ليلة عاصفة، تسمع صفير الريح، وتظن أن أحدهم سيطرقه، لكنه لا يُطرَق، أو كزهرة على حافة الذبول، تستيقظ كل يوم في الصباح على أمل

أن المطر سيهطل، لكن المطر لا يجيء، والتربة جفّت من الداخل.

الانتظار: أن تُشعل نور الغرفة وتجلس، لا لتقرأ، ولا لتكتب، بل لأنك لا تحتمل ظلمة أخرى في قلبك.. أن تتصفح رسائل هاتفك القديمة، لا بحثًا عن جديد، بل لتعيد قراءة رسائل قديمة تعيد لك عهدًا مضى، وتفتقده بشدة في حاضرك، كأنك تريد أن تبعث الماضي من جديد.

الانتظار ليس وقتًا يُقاس، بل هو صدأ يتسلل إلى الروح، غصة لا تتعلق بالغياب وحده، بل بذلك الإيمان القاسي أن شيئًا ما تغير، أو ذهب لن يعود... ومع ذلك، تبقى تنتظره.

(نادر) لا زال ينتظر، منذ عام – أو ربما عامين – ينتظر.. ينتظر ذلك الجليد القاسي أن يذوب، لكنه لا يذوب أبدًا.. ولا يبدو في الأفق ما يعد بأنه سوف يذوب!

يتأمل زوجته الحسناء (ريم)، ذات القوام المثير، والشعر الأسود الناعم الطويل الذي يصل إلى منتصف ظهرها، وبشرتها البيضاء، وعيونها العسلية الواسعة، وأهدابها الطويلة، فتستنفر طاقة الرجولة بداخله، لكنه لا يلبث أن يصطدم بالجليد ذي الطبقات الكثيفة فيتراخى كل شيء، وتبقى نار الانتظار واللهفة وحدها تستعر.

كان في وقت ما يظن أن هطول هذا الجليد هو الاستثناء الذي يعتري علاقة أي زوجين في فترة ما، ثم لا تلبث أن تعود حياتهما إلى طبيعتها، وتعود المشاعر إلى حرارتها، لكنه مع الوقت بدأ يدرك العكس، وأن هذا الجليد هو الأصل في حياته مع (ريم)، وأن مشاعر العام الأول كانت هي الاستثناء الذي ذهب ولن يعود.

هل كان عامًا كاملًا؟ هل أكملت حياته الزوجية مدة عام كامل من الألفة والدفء والرغبة والطمأنينة؟ لم يعد يذكر، ولم يعد واثقًا في أي شيء، سوى في أن هذا الجليد صلب وكثيف للغاية، ولا يبدو أنه سيذوب قريبًا، أو ربما لن يذوب أبدًا.

ثمة صورة على الجدار التقطت من حفل الزفاف، وهو يرتدي البذلة السوداء مبتسمًا في سعادة طفولية، وبجواره (ريم) في أبهى زينتها وفتنتها تبتسم هي الأخرى، لكنها ابتسامة أنثى ساحرة مبهرة، لديها القدرة على فرض هيمنتها على أعتى الرجال.

لقد مر على تلك الليلة ثلاث سنوات ونصف تقريبًا، مدة ليست طويلة في حساب الحياة الزوجية الأبدية، وقد أثمرت عن طفل يحبو الآن، ويحاول النهوض بصعوبة، وينطق بضع كلمات مبهمة، لكنها أثمرت أيضًا عن العديد من الخلافات والخصام والهجر والافتراق المؤقت، الذي كان يوشك في عدة مرات أن يكون دائمًا لولا تدخل الأهل لاحتواء الأمور، أو تدخل (حازم) صديقه بديبلوماسيته المعهودة لإنهاء الأزمة، التي لا تلبث لأن تعود وتتشب من جديد بعد مدة يسيرة.

لقد تغيرت (ريم) من جهته، هذه حقيقة، حقيقة يدركها كلما نظر أو استمع إليها، أو تحاور معها، لقد تلاشى من صوتها الدفء، ومن عينيها الشغف، وصارت الكلمات قليلة، والردود مختصرة، ونبرة الحديث باردة، وبعض الأحيان حادة، كأنها لا تريد أن تكون هنا معه.

يعود من عمله فيجدها مشغولة بأي شيء، أعمال البيت، أو رعاية طفلهما، أو الحديث عبر الجوال مع أمها أو إحدى شقيقاتها، ولا يجرؤ على قطع العمل الذي تقوم به مهما كان هذا العمل، فقط يخلع ملابسه في صمت،

ويدخل الحمام ليصلح من شأنه، ويخرج لينتظر أن تجهز له الغداء دون أن يستعجلها، لأنه لو حاول لن ينال منها سوى العراك والتوبيخ.

الأيام تمرّ، وكل يوم يشبه الذي قبله، وكل يوم يفكر (نادر) محاولًا الحصول على إجابة، أو الاهتداء إلى السبب: سبب هذا الجليد الذي انهمر بكثافة ليطمس المسافة بينه وبين (ريم).

سألها مرارًا في فترات سابقة عن سر جفائها، وهي لا تجيب، بل تنفي وجود هذا الجفاء من الأصل، أما صديقه (حازم) فيحاول تفسير الأمر بطريقته:-

- "صديقي، كل ما في الأمر أنك أدمنت الأفلام والأغاني الرومانسية التي جعلتك تكوّن في خيالك صورة وهمية عن الزواج، وكنت تعيش على أمل الوصول إلى هذا التصور، لكنك اصطدمت بالواقع، أي زوجة تبدأ حياتها الزوجية بشكل جيد، وتعامل زوجها كأنه ملك أو أمير، لكن بمجرد أن يحدث الحمل تكتشف أن هناك مخلوقًا آخر يستحق اهتمامها ودفء مشاعرها سوى الزوج، هذا ما يحدث لكل الزوجات، وقد حدث مع زوجتك، وعليك أن تتفهم هذا، على الأقل هي تكرس مشاعرها لطفلك."

ويغمز بعينيه مستطردًا:-

- "هل فهمت لماذا أن معرض عن فكرة الزواج؟"

كلام في ظاهره يبدو منطقيًا، خاصة أنه صادر من (حازم) صاحب الخبرة الواسعة مع النساء من جميع الأصناف، لكن (نادر) لا يستطيع أن يقتنع بهذا المنطق، فعاطفة الأم لوليدها لا تشبه أبدًا عاطفة المرأة لزوجها، ولا يمكن أن تتداخلا أو أن تطغى إحداهما على الأخرى، هذا ما يؤمن به، ولا يمكنه تصديق أي شيء يعارضه.

لكن (حازم) يصر على الدفاع عن نظريته قائلًا:-

- "لا تنس أن زواجكما لم يكن عن حب، أو معرفة سابقة، لهذا لن تكون العاطفة قوية كما تصبو."

(نادر) يثق في (حازم)، وفي كل ما يقوله (حازم) له، إنه صديق الصبا والشباب والعمر كله، لكنه لا يثق في نظريته هذه، ويشعر أن شيئًا ما يزعج (ريم) من جهته، كأنها تزوجته مرغمة دون رغبة حقيقية منها، وحاولت أن تتظاهر بغير ذلك فترة من الزمان، ثم فتر حماسها، وتخلت عن التظاهر.

يعود في المساء حاملًا الأمل في قلبه، وعلبة مقفلة في يده، ليقول لها باسمًا:-

- "أحضرت لك كعكة لذيذة للغاية، منظرها وحده يسلب الروح."

فتنظر إليه بفتور، وتتساءل:-

- "وما المناسبة؟"

فيجيب بسرعة كأنه يتوقع هذا السؤال:-

- "بمناسبة أنك زوجتي حبيبتي، وتستحقين دائمًا ألذ الأشياء."

فترمقه بنظرة غامضة، ثم تشيح عنه وتتشاغل بأي شيء، وتتناول معه الكعكة دون أن تمنحه عبارة شكر أو حب واحدة!

كان قد اعتاد هذا، لكنه في كل مرة يأمل في حدوث تغيير، والتغيير لا يحدث أبدًا.. أبدًا.. جرّب كل شيء: التودد، الغزل، الهدايا، التوسل، العتاب، التساؤل، النقاش، الخصام، والجليد لا يذوب أبدًا.. أبدًا.. ولا يملك إلا أن يزفر بعض الهواء الساخن من جوفه، ويقول بصوت مسموع:-

- "آه يا (ريم)، لو تعلمين كم أحبك!"

لا يجد الدفء والسلوى إلا في دفتره، حين يمسك بالقلم ويكتب، يكتب أي شيء، ولا شيء محدد، كأنه يجوب بقلمه شوارع وطرقات ودروبًا خاوية ليس فيها سواه، ويسير فيها بلا هدى، وبلا وجهة، فقط يكتب:

– "أحبها، برغم كل شيء.. أحبها، حتى لو لم تعد تحبني.. لكنني متعب.. متعب من أن أكون وحدي في هذا الحب.".

– "كنت أراكِ نورًا، فصرتِ ظلًا داكنًا.. وها أنا أعيش في العتمة وحدي.".

يكتب، فقط يكتب، يجوب دروب الظلام والوحدة، بلا هدى، وبلا وجهة! يعرف هو أن الحب حين يضيع لا يختفي دفعة واحدة، بل يتآكل مثل قميص قديم في خزانة القلب، تراه معلقًا هناك، تحتفظ به لأنك لا تستطيع رميه، رغم أنك لم تعد ترتديه منذ زمن، تسمع صوته في نغمة موسيقى عابرة، في ضحكة طفل، في رائحة عطر غادر، وتبتسم، ثم تبتلع ابتسامتك كأنك بلعت شظية.

لكنه يعود ويتساءل: هل كانت (ريم) تحبه من الأساس؟ كانت تصرح بحبها في الشهور الأولى من زواجهما، كانت تصرخ بها وهو يضاجعها، وهو يغتسل معها، وهو يتناول معها وجبة وكلاهما يدس الطعام في فم الآخر، لكنها كفت عن قولها منذ أمد بعيد.

***

(٤)

اسمها (رحيل)، فتاة جميلة ولطيفة ومهذبة، التحقت بالعمل معهم قبل عامين مضيا، واستطاعت أن تحظى بحب الجميع في وقت قياسي، هي نشيطة ومجتهدة في عملها، تعامل الآخرين باحترام وتهذيب شديدين، لكن بالتأكيد ليس هذا هو سبب نيلها حب الجميع، السبب المباشر لأن تنال أنثى محبة الآخرين هو جمالها الساحر، وقد كانت تمتلك منه قدرًا كبيرًا، للدرجة التي جعلت الجميع يلاحظ تقرب رئيسها المباشر (خالد غنيم) منها، ويبتسمون في خبث كلما رأوه يحادثها، والبعض رآها مرارًا تشاركه وجبة الغداء في المطعم القريب من الشركة بعد انتهاء العمل، لكن لا أحد يمكنه الجزم إلى أين تصل هذه العلاقة.

(خالد غنيم) شاب وقور، ذكي ومجتهد، لكنه مطلق، ومن الصعب جدًا استنتاج نوايا شخص بمواصفاته، فربما كان شخصًا يحاول أن يعيد تجربة الماضي مع تلافي أخطائها، وربما كان شخصًا يبحث عن علاقة خارج نطاق الزواج ليتفادى صدمة جديدة.

(رحيل) تضع في إحدى أصابع يدها اليمنى دبلة ذهبية، مما جعل الجميع يظن أنها مخطوبة بالفعل، لكن المقربين منها عرفوا أنها ليست مخطوبة، ولا حتى مرتبطة، لكنها تحتفظ بالدبلة كإرث لأمها، وإن كان هذا يعد تبريرًا غريبًا ولا يستند لمنطق في ذهن أي أحد منهم، لكن الفائدة الوحيدة من هذا الأمر أن الطريق مهيأ أمام (خالد غنيم) لو كان حقًا يسعى لعلاقة جادة ونظيفة تنتهي بالزواج الشرعي.

بالنسبة لـ (نادر مسعود) لم يكن أمر (رحيل) يهمه في شيء، هي مجرد زميلة حسناء، تعمل معه في قسم آخر من الشركة، ومن النادر أن يلتقيا، وهو متزوج من امرأة لا تقل عنها جمالًا وسحرًا، وإن كانت العلاقة بينهما ليس كما يرجو، لكنه في النهاية لا يحمل لـ (رحيل) سوى نظرات إعجاب صامتة تتبعث فقط حين يلتقيها مصادفة، وتنتهي بذهابها من أمام ناظريه، دون أن يعلق شيء منها بعقله أو قلبه.

لكنها جاءته اليوم بشكل مباغت، وكانت تتلفت حولها بشكل مريب، وحين تحدثت كانت تهمس بشكل أغرب كي لا يسمعها أحد:-

- "أستاذ (نادر)، علمت أن لك صديق يعمل بالسجل المدني، هل هذا صحيح؟"

(حازم)، آه.. نعم، صحيح، ما الأمر يا ترى؟

- "أريد خدمة عاجلة منه، ربما تكون... صعبة.. أو.. معقدة، لكني بحاجة ماسة إليها، هل يمكنك أن تدبر لي لقاء معه، على أن تكون حاضرًا معنا ذلك اللقاء، لتسهل عملية التفاهم معه؟"

مطلب غريب! بل مريب!

(نادر) شخص طيب ووديع، لكنه ذكي للغاية، وعقله يعمل بطريقة حسابية دقيقة قد لا يستوعبها أحد من معارفه، وعلى الفور تولدت الحسابات في ذهنه وتشابكت، واصطرعت التحليلات والتخمينات، وتراصت المعطيات وتبدلت مواقعها مرارًا حتى انتهى في غضون أقل من دقيقة إلى نتيجة مقلقة، يبدو أن الزميلة الجميلة الوديعة المهذبة تسعى للحصول على أوراق رسمية بطريقة غير قانونية، وتحتاج إليه لتسهيل ذلك، إنه الاحتمال الوحيد الذي تنتظم فيه جميع المعطيات بداية من أسلوبها المريب في الطلب.

وبناء على هذا الاستنتاج تولد سؤال آخر صاغه الفضول: ماذا يمكن أن يكون هذا الشيء؟

لم يظهر (نادر) شيئًا من حساباته هذه لزميلته الحسناء، واكتفى بأن وعدها بالتواصل مع صديقه لترتيب اللقاء، دون حتى أن يحاول التأكد من صدق تحليله واستنتاجه، وهي شكرته برقة، مع التأكيد على أن:-

- "أرجو ألا يعلم أحد سوانا بهذا الأمر، ليكن سرًا بيننا."

وكانت ابتسامتها الرقيقة كفيلة بجعل (نادر) يضمن لها الاحتفاظ بهذا السر بيقين تام.

***

- "الأمر وما فيه يا سيد (حازم): أن لي أخًا غير شقيق، وُلد ونشأ مع أمه في مكان آخر، بعد أن انفصلتْ عن والدي وهي حامل بأخي هذا، بينما والدي لا يعلم شيئًا عن هذا الحمل."

كانت (رحيل) تصوغ الأمر بصوت مهزوز متوتر، وإن كانت تبذلك محاولة واضحة للتماسك والثبات أثناء صياغتها، واستطردت بصوت بدأ يكتسب ذلك التماسك والثبات:-

- "المشكلة أنها استطاعت بطريقة ما أن تنسب هذا الطفل بعد مولده إلى شخص آخر، وكبر الطفل وهو يحمل اسمًا لا ينتمي له حقيقة، حتى رحلت والدته، فجاء إليّ أنا أخته الوحيدة، ونحن الآن نبحث عن حل لتصحيح الأمر، وإعادة الأمر إلى نصابها، ونسبة هذا الفتى لوالده الحقيقي."

وصل صوتها إلى قمة الثبات والتماسك، وهي تتساءل بشكل مباشر:-

- "هل يمكنك مساعدتنا يا سيد (حازم)؟"

كانت نبرة الرجاء أيضًا واضحة في صوتها، ويفترض أن تتلقى جوابًا الآن، لكن (حازم) ظل ينظر إليها بصمت، قبل أن يشيح بوجهه ويلتفت إلى (نادر) كأنه يستشيره بالنظرات.

كان الثلاثة يجلسون معًا في ذلك المقهى الفاخر، (رحيل) تجلس في جانب، و(حازم) و(نادر) يجلسان في الجانب المقابل، وأمام كل منهم مشروبه المفضل، القهوة أمام (رحيل)، والشاي أمام (حازم)، وعصير الموز باللبن أمام (حازم).

وطال الصمت بينهما، وعاد التوتر والاهتزاز يسيطر على (رحيل)، حتى تحدث (حازم) محاولًا ترتيب الأمر:-

- "ما فهمته منك: أن والدك، ووالدة أخيك، ليسا على قيد الحياة في هذه اللحظة، أليس كذلك؟"

أومأت (رحيل) برأسها إيجابًا، فلاذ (حازم) ثانية بالصمت، وتدبر الأمر في رأسه قليلًا قبل أن يقول وهو يضغط على حروف كلماته:-

- "إذن الأمر هنا لم يعد يحتاج إلى حلول طبية، أو علمية، أنت بحاجة إلى أوراق رسمية بطريقة غير قانونية."

ترددت (رحيل) ولم تجب، فالصياغة التي صاغها (حازم) وإن كانت مهذبة ودبلوماسية، إلا أنها لا تعني سوى شيء واحد: أوراق مزورة.

نظرت (رحيل) إلى (نادر) كأنها تستغيث به ليتدخل ويجيب نيابة عنها، وفهم (نادر) نظرتها، فالتفت إلى صديقه قائلًا بشكل مباشر:-

- "هل يمكنك ذلك؟"

أجاب (حازم) سريعًا وبشكل حادّ:-

- "مستحيل طبعًا.."

ثم أشار إلى (رحيل) قائلًا:-

- "إنها تطلب شيئًا غير قانوني، وهو كفيل بأن يدخلني السجن، ولست مستعدًا لهذا مهما كان المقابل."

بالنسبة لـ (رحيل): لم تفهم عبارة (حازم) الأخيرة إلا على أنه شخص شريف وهي طلبت منه شيئًا يجرح ضميره، فبهتت ولم تعرف كيف تتخلص من هذا الموقف، أما بالنسبة لـ (نادر) – وهو أكثر دراية بصديقه – فلم يفهم الأمر سوى أن (حازم) يتعمد إظهار صعوبة الأمر، ليزيد من المقابل الذي سيحصل عليه، لذا قرر أن يقطع عليه حيلة الاستغلال هذه، ويقول له بشكل مهذب:-

- "أنت تعرف أن الأخت (رحيل) هدفها إنساني، إنها تريد استعادة أخيها بشكل رسمي، وأيًا كانت الوسيلة التي ستحقق لها ذلك، فلن يغير هذا من تلك الحقيقة."

وكرر ضاغطًا على الحروف بدوره:-

- "هدفها إنساني."

نظرت إليه (رحيل) بامتنان، كأنه خلصها من مأزق، لكن (حازم) ظل متمسكًا بموقفه، وقال بعصبية مفتعلة:-

- "النيابة والمحكمة لن تهتم بالهدف الإنساني لو وصل الأمر إليها، ربما سيفيدها هي أمام القاضي، لكنه لن يفيدني أنا، وسيكون مصيري السجن بتهمة التزوير."

والتفت إلى (رحيل) قائلًا:-

- "ثم ما يدريك أنه أخوك من الأساس، ربما كان شخصًا محتالًا يخدعك، كيف تثقين بكلامه؟"

لم تجب (رحيل) بلسانها، وإنما أمسكت بجوالها ولمست الشاشة عدة مرات، قبل أن تشهره في وجهنا لتعرض صورة تبدو قديمة لشخص ما، وهي تقول:-

- "انظرا: هذا أبي، وهذه آخر صورة له قبل رحيله منذ عشرين سنة."

ثم سحبت الجوال وأعادت لمس الشاشة كأنها تقلب الصورة، وعادت تشهره في وجهنا مرة أخرى وهي تقول:-

- "وهذا أخي.. هذه الصورة التقطتها له قبل يومين."

حدّق (نادر) و(حازم) في الصورة بنظرة تمتزج فيها الدهشة والشك، فقد كانت الصورة تشبه الصورة الأولى بشكل كبير، حتى ليكاد يكون كلاهما نفس الشخص، مما جعلهما يشيحان بصرهما عن الصورة بعد لحظات، وينظر كل منهما إلى الآخر بذات الدهشة والشك، ولاذ كلاهما بالصمت!

***

(٥)

لم يكن ثمّ زحام، لقد تفاجأ (نادر) بأن المدعوين عددهم قليل جدًا، بعض الموظفين بالشركة، وعدد قليل جدًا من الأقارب والأصدقاء، بالطبع كان (خالد غنيم) هناك يتابع (رحيل) ببصره أينما ذهبت، ونظراته يتواثب منها الوله، وكان أيضًا ذلك الفتى هناك، وكانت هي مهتمة جدًا بتقديم هذا الشخص إلى جميع المدعوين، وتقول بنبرة يملؤها الحب والاعتزاز:-

- "(يوسف) أخي!"

قليل من الحاضرين - ومنهم (نادر) - يعرفون أنها حظيت بهذا الأخ مؤخرًا، لكن (نادر) وحده يعرف أنها اختلقت له هوية رسمية تثبت أخوته لها بطريقة غير رسمية وغير شرعية، بمساعدة (حازم) صديقه، الذي حصل على مبلغ كبير مقابل القيام بهذه المهمة، وكان بوسعه أن يحصل على مبلغ أكبر لولا وجود (نادر) في المعادلة، فهو الذي منعه من استغلال الفتاة بدرجة تفوق الحد المقبول من وجهة نظره.

كانت الفتاة سعيدة سعيدة، سعيدة كقطة وجدت الدفء والغذاء في حضن مالكها الحنون، وكانت مشاعرها كلها مصوبة تجاه هذا الفتى الذي قدمته باعتباره أخاها، ولم تلتفت لحظة إلى (خالد غنيم) الذي يكاد يلتهمها بنظراته الوالهة.

انتبه (نادر) إلى رنين جواله، كان المتصل (حازم):-

- "أنت بالحفل؟"

- "نعم.. أين أنت؟ لماذا تأخرت؟"

- "معي عمل هامّ، لم أستطع أن أفوته."

همس (نادر) له في عتاب:-

- "البنت تعاملك كصديق، ووجهت لك دعوة، فلا تعاملها كزبونة انتهت صفقتها، ولم يعد لك حاجة إليها."

لكن (حازم) يجيب بهدوء:-

- "سأحاول الانتهاء من عملي هنا وألحق بك، انتظرني حتى أجيء، ولا تغادر من دوني."

وأنهى المحادثة قبل أن يحصل على رد، بينما قبع (نادر) يتساءل: هل هو فعلًا مشغول بعمل هام، أم أنه حصل على امرأة جديدة يعبث معها، ولا يريد تفويت الفرصة؟ وتساءل مرة أخرى: هل سيجيء حقًا أم أن أمر (رحيل) لم يعد يعنيه بعد أن حصل على مبتغاه؟

لكنه لم يشغل باله كثيرًا بالعثور على أجوبة، فمنظر الجمع القليل الذي كان حاضرًا هذا الحفل الصغير جعله يحزن لأن (ريم) لم تأت معه، كان يودّ أن يقدمها للحاضرين بذات الحب والاعتزاز الذي تقدم به (رحيل) أخاها لهم باعتبارها زوجته الجميلة الحبيبة، وكان يثق تمامًا بأن (ريم) ستخطف الأنظار من الجميع، حتى من (رحيل) الجميلة مضيفتهم، لكن (ريم) هي التي رفضت الذهاب معه بحجة أنها لا تحب التواجد بمكان لا تعرف فيه أحد.

هذا التفكير بدد شعوره بالاندماج مع الحضور، وبدأ يلقي في نفسه شعورًا بالوحدة، لماذا يا (ريم)؟ لماذا تغيرتِ؟ كانت أمامنا فرصة لنظر الآن كأسعد زوجين في المدينة، لماذا أهدرتِ هذه الفرصة، مثلما أهدرتِ كل المشاعر النبيلة التي أحملها لك؟

وكان حقًا يهمه الحصول على جواب لهذه الأسئلة! لكنه لا يملك إلا أن يزفر بعض الهواء الساخن من جوفه، ويقول بصوت مسموع:-

- "آه يا (ريم)، لو تعلمين كم أحبك!"

***

(٦)

طراااك، تـااك، تـشن.. افـتح الغطـاء، اضـغط زر الإشـعال، ينـدفع لـسان اللهب، ويتطاير الشرر الضئيل كالشظايا المتناثرة.

طراك، تاااك، تشن..

لقد حصل على قداحة أخرى لا تشبه تلك القداحة التي يملكها (حازم)، لكن لا يهم، المهم أنه الآن يمتلك قداحة يمكنه أن يشعلها ويطفئها متى أراد، وهذا ما مكث يفعله الآن.

طراك، تاااك، تشن..

حـين يـشعل قداحتـه، لا يبـدو كمـن يبحـث عـن نـارٍ لـسيجارته، بـل كمـن يستحضر وهجًا خافتًا من ذاكرة بعيدة، يضغط الزر ببطء، كأنه يستأذن اللهب كـي يظهـر، ثـم يُمعـن النظـر فـي شـررها الـصغير الـذي يـومض فجـأة بـين أصابعه، ويندلع اللهب فجأة، ويرافقه صوتٌ خافتٌ كأنينه.

تتنـاثر الـشظايا الـصغيرة، تقفـز فـي الهـواء كـذكرياتٍ تقـاوم النـسيان، فـي تلـك اللحظة العابرة، تتكشف خفايا رجلٍ أنهكه الليل، رجلٍ لم يعد يؤمن بالضوء إلا حين يصنعه بنفسه.

كـان يحدّق فـي اللهـب كأنـه يـرى فيـه غـضبه المُحتجز، وشـظاياه المتطـايرة تلك بمثابـة كلماتـه التـي لـم يقلهـا، انفجـارات صـغيرة لـم يـسمح لهـا بـالخروج، لـم يكـن يطفـئ اللهـب فـورًا، بـل يتركـه يحتـرق للحظـةٍ أطـول، كأنـه يـضيء شـيئًا داخلـه، شيئًا لا يراه أحد سواه... شجن قديم، أو ربمـا جرحٌ اعتـاد التوهج دون أن يُشفى، يشتعل كلما ظن أنه انطفأ.

لقد كان غبيًا، غبيًا جدًا! لم يلحظ ما كان ظاهر أمامه بشدة، من قبل أن يرى تلك القداحة بجوار الفراش!

قداحة ذات لون ذهبي، مزدوجة اللهب، ذات غطاء على شكل نسر ثلاثي الأبعاد، لا يوجد عليها رسوم ولا زخارف، لكنها أنيقة بشكل لافت، مقاومة للتسرب، ومتينة، خفيفة الوزن.

لهذا لم يحضر الحفل، كان هناك في فراش زوجته، يضاجعها بكل عنفوانه، وهي تتجاوب معه بشبق، وتزوم وتتأوه، ترى هل اتصل به قبل أن يبدأ؟ أم بعد أن انتهى من أول جولة؟ لم يكن في صوته ما يشير إلى ذلك، كم جولة قضاها معاها حتى شعر بالاكتفاء؟

هذا هو العمل الذي شغله عن حضور الحفل، ويضحك (نادر) ببلاهة شديدة، تخلف عن الحفل ليضاجع زوجته (ريم)، كان عليه أن يلحظ تأثيره عليها في المرات التي تدخل فيها لإنهاء مشكلة بينهما، لكنه لم يلحظ أي شيء، سوى تلك القداحة التي نسيها بجوار السرير بعد أن أنهكه معركة اللذة المنهكة.

لقد عاد (نادر) من الحفل وحيدًا، وصعد إلى شقته بالدور الخامس، لم يرن الجرس، ولم يطرق الباب خشية أن تكون زوجته الحبيبة نائمة فيزعجها، فتح الباب بمفتاحه بحذر، كانت في الحمام تغتسل، وطفله الرضيع نائم في فراشه الصغير.. ترى هل استيقظ الطفل وقطع عليهما معركة اللذة؟ أم أنه تامّ البلاهة مثل أبيه، واستغرق في النوم لم يشعر بأي شيء؟

ترى هل هو أبوه حقًا؟!

كانت تغتسل، فدخل هو إلى غرفته ليستبدل ثيابه فوجد القداحة ذات اللون الذهبي، وغطاء على شكل نسر، قابعة هناك، بجوار السرير، يعرف أنه

صعق عندما رآها، لكنه يعرف أيضًا أنه تجمد في مكانه يحدق في القداحة دون حراك عدة دقائق كاملة!

وحين أفاق لنفسه تراجع خارجًا إلى الصالة وألقى بنفسه على الأريكة منهارًا ولا يعرف حتى ما إذا كانت أنفاسه تتواصل أم انقطعت!

حين أنهت (ريم) غسلها، وخرجت متدثرة بالمنشفة الكبيرة تفاجأت به أمامها على الأريكة، فسألته بحذر وارتباك:-

- "متى عدت؟"

لا يدري من أين جاء بكل هذا التماسك والثبات وهو يجيب:-

- "منذ أقل من دقيقة."

لكنه يعرف أن صوته كان صلبًا وجامدًا لأقصى درجة، وظلت هي تنظر إليه كأنها تريد أن تستكشف شيئًا، ثم واصلت طريقها إلى غرفتها لتكمل ارتداء ملابسها، وبعد دقائق سمع صوت رنين جوالها.

هل كان هو؟ هل انتبه لنسيان القداحة عندها أخيرًا، فأسرع يتصل بها لتنتبه هي الأخرى وتخفيها؟ لم يسمع أي شيء، لكن يبدو أن استنتاجه صحيح، لأنه حين استجمع قواه أخيرًا واستطاع النهوض واقفًا، وتوجه إلى الغرفة، اختلس نظرة سريعة إلى حيث كانت القداحة لم يجدها!

- "لماذا لم تستبدل ثيابك فور عودتك؟"

تريد أن تتأكد هل دخل الغرفة أم لا، يرى ذلك في نظراتها القلقة تجاهه وهي تلقي السؤال.

- "كنت مرهقًا، لقد سرت مسافة طويلة على قدميّ حتى وجدت سيارة، وأرهقت أكثر وأنا أصعد السلم، بالكاد استطعت الوصول إلى الأريكة."

يعرف أنه جواب مقنع، لكن لا يعرف إن كان كافيًا أم لا.

لكنه ظل صامدًا بقية الليلة، ظل صامدًا وهو يتناول طعامه ويتظاهر بأنه لا يلحظ نظراتها القلقة المرتابة نحوه، وظل صامدًا وهو يستلقي بجوارها على السرير ويشمم رائحة (حازم) تفوح من كل موضع من جسدها الجميل المثير، وظل صامدًا وهو يتظاهر بالنوم طيلة الليل، وهي ترقد بجواره قلقة وتتظاهر هي الأخرى مثله في الساعات الأولى من الليل، وظل صامدًا وهو يستيقظ قبلها ويعد لها الإفطار كعادته، ويضعه بجوار سريرها، ويقبلها في فمها كما اعتاد أن يفعل كل صباح، دون أن يكسر هذه العادة، وظل صامدًا حين غادر البيت وهو يزفر بعض الهواء الساخن من جوفه، ويقول بصوت مسموع:-

- "آه يا (ريم)، لو تعلمين كم أحبك!"

***

طراك، تاااك، تشن.. يتصاعد لسان اللهب، وتتطاير الشظايا الصغيرة حوله!

طراك، تاااك، تشن.. لسان اللهب يشبه حريقًا صغيرًا في زاوية الصدر، لا يكفي ليحرقك تمامًا، لكنه لا ينطفئ!

يستطيع أن يطفئ لسان اللهب المنبعث من القداحة، لكنه لا يدري كيف يخمد لسان اللهب المستعر في تلك الزاوية من صدره!

***

الفصل الرابع

وَمَـضَــات

(١)

رسالة:-

- "إنه ليس.... يا إلهي! لقد كنت حمقاء للغاية، لا يوجد شيء اسمه السفر عبر الزمن! يا إلهي! كيف صدقت هذا الهراء؟! لقد كنت غبية.. غبية وحمقاء لأقصى درجة!"

***

ظلام، طنين، ضباب داكن كثيف، ارتجاج..

أول ما بدأت تدركه بوعيها المضطرب والمشوش هذه المفردات مجتمعة، كأنّها كانت غارقة في بحرٍ بلا قرار، والأمواج تسحبها إلى الأسفل بلا مقاومة، ثم، فجأة، بدأت ترتفع ببطء.. ببطء.. لكنها لم تصل إلى السطح بعد.

حاولت أن تستجمع شتات عقلها الذي يحيط به الضباب الكثيف الداكن، حاولت أن تستجمع إدراكها، لكن محاولاتها كانت أشبه بانتشال حيوان نافق غاص في بركة من الوحل الكثيف.

طنينٌ حادٌ يدوي في أذنيها، كصافرات بعيدة تتردد في كهفٍ مغلق، شعرت أن رأسها ليس ملكها، أن دماغها محاصرٌ بين ضبابٍ لزج وأفكارٍ بطيئةٍ متقطعة، كأن الوعي نفسه يحاول التسلل إلى جسدها عبر شقوقٍ ضيقة.

عيناها كانتا مفتوحتين، لكنها لا ترى أي شيء سوى الظلام الكثيف، كل شيء كان مموّهًا، أضواء بعيدة باهتة تهتز أمامها، وجدرانٌ تتحرك أو توشك أن تنهار، حاولت رفع يدها، فلم تستجب، حاولت تحريك بقية أطرافها لم تفلح، حتى الهواء الذي تتنفسه بدا غريبًا، ثقيلًا، وكأنه يدخل إلى صدرها محمّلًا بذكريات مغلوطة أو أشباح منسية.

انتبهت فجأة إلى أنها داخل سيارتها، ممدة في المقعد الخلفي منها، والسيارة ترتج بقوة كأنها تسير فوق طريق غير ممهد، حاولت أن تتذكر أي شيء يخص أية سيارة، لكن التفاصيل تتطاير من ذاكرتها كقصاصات ورق في عاصفة.

عقلها بدأ يستفيق ببطء، كما لو كان يُبعث من الرماد، شعرت بشيء من الخوف، من لا واقعية اللحظة، من هذا التيه بين النوم واليقظة، بين الحياة واللا شيء، كانت الأصوات حولها مشوّشة، كأن العالم يتحدث بلغة لا تفهمها، وكأن الزمن يسير على إيقاعٍ مكسور، أدركت أنها هنا، لكنها لا تدري أين "هنا"، ولا "متى"، ولا ما الذي كانت عليه قبل أن تغيب.

- "ها قد بدأتِ تستردين وعيك!"

هذا الصوت الذي تسلل إلى مسامعها من بين الطنين مألوف لها، حاولت أن تستجمع شتات وعيها لتتذكر صوت من!

- "لا أعرف لسوء الحظ أم لسوئه، لكننا اقتربنا على أية حال."

إنه صوت والدها! نعم.. صوت أبيها، لكن أين هو؟ إنها غير قادرة بعد على تحديد الاتجاهات!

- "هذا مفعول المخدر الذي تناولته مع العصير، سوف تستردين وعيك ببطء وبصعوبة، لكنك لن تستعيدي القدرة على تحريك أطرافك إلا بعد وقت طويل، وللأسف أنت لا تملكين هذا الوقت، كل شيء سينتهي خلال دقائق قليلة، وتغادرين هذا العالم، ولن يستطيع أحد إنقاذك، خاصة ذلك الوغد السخيف المدعو (خالد غنيم)."

مخدر؟ عصير؟! (خالد غنيم)! عم يتحدث؟

وبدأت في هذه اللحظة بعض الذكريات والمشاهد تومض في عقلها المشوش كومضات البرق السريعة الخاطفة!

(خالد غنيم) يجلس أمامها في مكتبها بالشركة مرتبكًا، ويقول بأحرف مبعثرة:-

- "آنسة (رحيل)، لا أعرف إن كان هذا هو المكان أو الوقت المناسب لأفاتحك في هذا الأمر أم لا، لكني ترددت طويلًا قبل أن أفعلها، ولم أعد قادرًا على الانتظار أكثر.. هل.. تقبلين الزواج مني؟"

ومضات خاطفة، ضوؤها يخطف الأبصار، لكنه لا يزيل هذا الطنين الذي يحيط برأسها!

والدها يدخل عليها الغرفة حاملًا صينية صغيرة عليها كوبان من العصير باللون البرتقالي، يسند الصينية أمامها، ويتناول أحد الكوبين، ويجلس على المقعد البعيد، ويشير لها بالكوب مبتسمًا:-

- "لا أعدك بأنه سيكون عصيرًا شهيًا، لكنه أفضل ما يمكنني عمله."

ومضات خاطفة، والسيارة لا تزال تهتز، والطنين يضرب أذنيها بقوة!

والدها لا يزال ممسكًا بكوب العصير في يده، ويميل نحوها متسائلًا بنبرة غريبة غير مريحة:-

- "هل أفهم من هذا أنك تميلين إلى الموافقة على الزواج منه؟"

ومضات، ومضات.. توقفت مع توقف السيارة، لكن الطنين لم يتوقف، وسمعت صوت باب السيارة الأمامي يفتح، ثم صوت الباب الخلفي المجاور لرأسها يفتح هو الآخر، ثم شعرت بهاتين اليدين القويتين تسندانها لتتخذ وضع الجلوس، وهي لا تزال لا تشعر بجسدها ولا بأطرافها، لكنها رأته يجلس بجوارها، وسمعته يقول بهدوء، وبنبرة جافة:-

- "لم يكن يفترض لهذا أن يحدث، على الأقل ما كان ينبغي أن يحدث بهذه السرعة، لكن الوغد (خالد غنيم) أفسد كل شيء."

التفت لينظر إليها مباشرة، واستطرد:-

- "كل ما كنت أبغيه: أن أستعيد هويتي، وأن أحصل على منزل نظيف، ووظيفة جيدة، ومبلغ من المال أسدد به ديوني وأبدأ به حياة نظيفة، وقد حصلت على الأولى، لكن الوغد (خالد غنيم) يريد أن يفسد خططي كلها، وكأنه كان ينتظر مجيئي.."

انفعل فجأة وأخذ يضرب المقعد الذي أمامه بحنق وهو يقول:-

- "تبًا له! تبًا له!"

ومثلما انفعل فجأة استعاد هدوءه فجأة، وتراجع ليستند على المقعد بظهره ويضيف قائلًا بتلك النبرة الجافة:-

- "الآن ليس أمامي سوى أن تموتي وأنا أرثك، كل الناس تعرف أني أخوك، الأوراق الرسمية التي استخرجتِها لي بنفسك تثبت هذا، يا إلهي!"

فجأة استغرق في الضحك بطريقة غريبة، وأخذ يقول بصوت متقطع من بين ضحكاته:-

- "لقد كذبنا على الناس بقول الحقيقة، يا إلهي!.. كذبنا على الناس بقول الحقيقة!"

وواصل القهقهة بطريقة هستيرية، واستغرق الأمر مدة بدت طويلة جدًا، قبل أن يتوقف ويلتفت إليها ويشير بسبابته قائلًا:-

- "نعم، هذه هي الحقيقة أيتها البلهاء، أنا أخوك لا والدك، لا يوجد شيء اسمه السفر عبر الزمن، إنها فكرة سخيفة طرأت على بالي وأنا أراقبك لفترة، وشاهدتك وأنت تبحثين عن رواية (ستيفن كينغ) السخيفة، أنا أيضًا شاهدت

مسلسل (مانيفيست) وراقتني الفكرة، لكني لست بهذه البلاهة لأصدقها، قررت أن أستغل الشبه القوي بيني وبين والدي، كانت مغامرة، بل مراهنة شبه خاسرة، ومع ذلك ربحت، وصدقتِ فعلًا أني هو!"

عاد يقهقه مجددًا بطريقة هستيرية، الطنين لا يزال يحيط برأسها، تستمع إليه بصعوبة، وتحاول استيعاب حديثه، وتحريك أطرافها، لكنها جسدها هامد تمامًا، لا يستجيب لأوامر عقلها المشوش المحاط بالطنين.

استغرق وقتًا طويلًا في الضحك، حتى توقف من نفسه، وقال لاهثًا:-

- "لقد فكرت في البداية أن آتي إليك، وأقدم لك نفسي مخبرًا إياك بالحقيقة: أني أخوك غير الشقيق، لكني لم أكن أعرف كيف ستتقبلين هذا، ربما فرحتِ بي، وربما طردتني، ولم تتقبلي حقيقة أن يكون والدك قد أنجب من امرأة أخرى غير أمك، عن نفسي لا أثق كثيرًا في رابطة الأخوة، خاصة لو نشأ الأخوان بعيدًا عن بعضهما، تعلمين أن أول جريمة قتل في العالم كانت بين أخوين، لهذا.. لما رأيتك تبحثين عن تلك الرواية السخيفة، عرفت أنك خيالية بلهاء، وجاءني يقين أنك ستصدقين تلك الحيلة السخيفة، وقد كان.."

قالها ثم نزل من السيارة، ورأته يبتعد حتى غاب في الظلام، حاولت أن تنفض الطنين عن رأسها، حاولت تحريك أطرافها مجددًا، لكنها بالكاد وجدت استجابة من أطراف أصابع يدها اليمنى، وكانت حركة ضعيفة للغاية!

بعد لحظات رأته يعود إليها، ليقول:-

- "هناك هوة عميقة أمامنا، تزيد على مائة متر، إنها منطقة تلال غير مأهولة، ولن يمر بك أحد إلا صدفة."

دار حول السيارة، حتى وصل إلى الباب المجاور لها، وفتحه قائلًا:-

- "الآن سأحملك لأضعك أمام عجلة القيادة، سيبدو الأمر انتحارًا، نعم، سيصدق الجميع أنه انتحار، لقد قرأت بالمناسبة تلك القصة السخيفة التي كتبتها، عن تلك الفتاة التي قررت الانتحار بسبب خذلان الجميع لها، لحسن الحظ أنك كتبت رسالة انتحار على لسانها، ولحسن الحظ أنك كتبت الرسالة في الورقة الأخيرة وليس في ظهرها شيء، سأقص هذه الرسالة وأقدمها للشرطة حين يأتون لسؤالي، الرسالة ليست موقعة للأسف، لكن يكفي أنها بخط يدك، ولن توجد آثار عنف على جسدك المحطم.. ستكون جريمة مثالية يحسدني عليها كل قتلة العالم.."

قالها ثم مد يديه القويتين ليمسك بجسدها الخفيف الهامد، وحملها بقوة بين ذراعيها، واتجه إلى المقعد الأمامي حيث توجد عجلة القيادة، وأجلسها على المقعد بإحكام، وقال لاهثًا:-

- "ما لا تعرفينه أن أمي قتلت والدك ودفنته في مكان مجهول، فلم يعرف أحد أنه مات، ولم يعثر أحد على جثته، وكل هذا بسبب أمك التي عرفت أن والدك على علاقة بامرأة أخرى، لكنها لم تكن تعرف أنه متزوج منها بورقة عرفية، وأن ضرتها كانت حبلى بطفل، وأجبرت والدك على أن يتخلص من أمي، ووالدك أذعن لرغبتها، للأسف لا يمكنني أن أفعل هذا، لأني أحتاج إلى إثبات وفاتك حتى أرثك، أظن خطتي جيدة، أنا لست شريرًا، أنت ووالدتك الشريرتان، أردتما الحصول على والدي وعلى كل شيء يملكه، ولتذهب أمي وطفلها إلى الجحيم، ما يحدث الآن هو العدل بعينه، إنها النهاية يا أختي العزيزة، صدقيني سأبكي عليك أمامهم بشكل مقنع.."

وابتعد عنها مجددًا، وذهب ليزيل الصخور الصغيرة التي قد تعوق انطلاقة السيارة نحو الهوة.

الطنين لا يزال يحيط برأسها، ويضرب أذنيها بعنف، الأدرينالين بدأ يتدفق في دمائها، شعرت بأصابع يدها اليمنى تتحرك بشكل أفضل، شعرت بقدرة طفيفة في قدمها اليمنى أيضًا، جسدها يستكين هامدًا أمام عجلة القيادة، لمحت المفتاح في موضعه بلوحة القيادة، مدت أصابعها المرتجفة نحوه، أمسكت به بوهن، أدارته بصعوبة شديدة، فاشتعل صوت المحرك.

لم تعرف ماذا تفعل بعد، أمسكت ذراع السرعة بذات الأصابع المرتعشة، وفي نفس اللحظة حركت قدمها اليمنى بشكل عشوائي، وحاولت أن تضغط على الدواسات بأسفل، تفاجأت بأن السيارة تحركت واندفعت للأمام!

في تلك اللحظة كان هو يزيل قطع الصخور التي قد تعترض طريق السيارة، التي تقف على بعد بضعة أمتار من الهوة، تفاجأ بصوت المحرك، فنظر نحو السيارة مبهوتًا، تفاجأ بأن السيارة ذاتها تندفع نحوه، جحظت عيناه من الصدمة، وجمدته المفاجأة، لم يشعر إلا والسيارة تصدم به وتدفعه أمامها في طريقها إلى الهوة!

الهوة! ضربت الكلمة رأس (رحيل) في هذه اللحظة، وبددت الطنين الذي يحيط برأسها، انتبهت إلى أنها تتجه بدورها وهي داخل السيارة نحو الهوة السحيقة..

- "بابا، لمَ السماء زرقاء؟"

ضحك، ثم أجاب:-

- "لتشبه لون فستانك الأزرق الجديد، إنها تغار منك.."

ضحكت بدورها، ثم قالت:-

- "السماء جميلة لا تغار."

أجاب ضاحكًا:-

- "لكنها ليست أجمل منك."

صمتت قليلًا ثم قالت:-

- "لِمَ يظهر القمر فقط بالليل؟ هل يخاف من الشمس؟"

هزّ رأسه ومدّ يده ليربت على شعرها بدفء، وقال:-

- "بل لأنه يحب أن ينام كثيرًا بالنهار مثلك أيتها الكسول."

ضحكت وعانقته مجددًا، وقالت دون مناسبة:-

- "أنا أحبك يا بابا.."

أجابها وهو يضمها بقوة إلى صدره:-

- "وأنا أيضًا أحبك يا ابنتي.."

كانت تتجه بالسيارة نحو الهوة السحيقة، لم تعرف ماذا تفعل، الأدرينالين يزداد تدفقًا في دمائها، كل ما تمكنت من فعله أن ضربت أرضية السيارة بقدمها اليمنى المتحركة، ودفعت جسدها المتراخي جانبًا لتجد نفسها تقفز خارج السيارة من خلال الباب الذي لا يزال مفتوحًا، ويرتطم جسدها الخفيف بالرمال، بينما السيارة واصلت طريقها وهي تدفع ذلك الشيء الذي ظننته والدها أمامها، قبل أن يهوي كلاهما لأسفل، وبعد لحظات قليلة سمعت صوت ارتطام عنيف جدًا..

وبعدها ساد السكون، والظلام!

***

(٢)

المطر يهطل بغزارة، صوت قطرات الماء على الأسفلت بالخارج لا يصل إلى الداخل، حيث النوافذ المقفلة بإحكام، والموسيقى الهادئة التي تنساب في المكان بنعومة مريحة.

في تلك الزاوية الدافئة من المقهى، حيث تعانق جدرانه أضواء خافتة، جلسا متقابلين، وبينهما طاولة صغيرة تستند على عطر اللقاء، على يمينهما زجاج الواجهة الناصع، حيث تنساب قطرات المطر على هيئة خطوط متعرجة، كأن الأمطار تكتب على النوافذ رسائل مبهمة بخطٍ مائيٍّ مرتجف.

أحس (حسين) في تلك اللحظة كأن قطرات المطر دموع ترسلها السماء وهي تبكي، فتساءل في سره: من أين أتت هذه الفكرة الكئيبة إلى هذا اللقاء الرائع الذي يفيض بالمشاعر الرقيقة والمبهجة؟

أحس بالزمن يتباطأ احترامًا لنبض قلبين التقيا أخيرًا، حدّق في وجه حبيبته متأملًا، كانت عيناها تتأملان وجهه بدورها كما لو كانت تحفظ ملامحه لتقرأها لاحقًا تحت الغطاء، بينما هو يحدّق في تفاصيلها بصمتٍ شبيه بالدعاء، وكأنّ كل ما فيها من دفء كفيل بأن يشفيه من برد العالم.. ومد يده ليلامس يدها، وارتعشت أصابعه من ملمس يدها، بينما هي بدت ساكنة ثابتة تبتسم، فابتسم بدوره، وارتفعت حرارة اللحظة فوق برودة الطقس.

فنجان الشيكولاتة الساخن أمامها لم يُرتشف بعد، وكأنها تفضل أن تشرب حضوره بدلًا من السُكَّر، وهو لا يحتاج سوى لصوتها ليغمره دفء الشتاء كله، حولهما موسيقى ناعمة، وقليل من الناس يتحركون بخفة لا تقطع انسياب السكون، بينما كل شيء في المكان بدا وكأنه خُلق ليكون خلفية للغرام.

وفي لحظة خاطفة، أغمضت عينيها على وقع المطر، وقالت همسًا:-

- "حبيبي.. كل ما أريده الآن: أن يتوقف العالم هنا، عند هذا المكان والزمان، عند نظرتك، وعند هذا المطر."

ابتسم، بدا كشخص تائه كمن وجد وطنه أخيرًا، لكنه بحث عن شيء يقوله، وتحيّر، وبعد برهة قال لها:-

- "لن يفرقنا شيء، سنظل معًا للأبد."

ارتعدت فجأة وتخلت عن ثباتها وسكونها، وقالت:-

- "ألا تخشى أن يحاول أحدهم التفريق بيننا عمدًا؟"

تعجب من كلماتها، تساءل:-

- "أحدهم؟ من تقصدين؟"

نظرت إليه بصمت، ولم ترد، وبدا في عينيها خوف غريب، وتسلل هذا الخوف إليه، وهو ينظر إليها متحيرًا قلقًا، لكنه فجأة أحس أنه فهم ما تعنيه، فقال لها بحذر:-

- "هل تقصدين....؟!"

ظلت تنظر إليه بخوف غريب، دون أن تنطق، فتيقن من الأمر، وأحس بغضب شديد، وقال لها:-

- "لن أتركه يفرق بيننا، لن أدعه يدمر حياتنا، سأتصدى له بكل قوتي، حتى لو وصل الأمر إلى أن أقتله!"

ازداد نظراتها إيحاء بالرعب، وتساءلت:-

- "عمّن تتحدث؟"

قال بحزم:-

- "تعرفين عمن أتحدث."

كررت سؤالها بذات النبرة المرتعدة:-

- "عمّن تتحدث؟"

قال بتحدٍّ:-

- "عن (رمزي طارق)!"

تبدلت ملامحها من الرعب إلى الدهشة، وتساءلت:-

- "(رمزي طارق) من؟"

أحس بشيء غريب يحدث، لكنه لا يستطيع أن يحدد ما هو، فكرر ضاغطًا على أسنانه:-

- "(رمزي طارق)، إنه شيطان، يريد أن يدمر حياتي وحياة أصدقائي، ولن أقف مكتوف الأيدي، سأتصدى له بكل طاقتي."

مرة أخرى قالت بدهشة:-

- "(رمزي طارق) من؟"

انتبه في هذه اللحظة إلى الصوت، هذا ليس صوتها، إنه صوت أخته (نوال)، غريب هذا؟ هتف قائلًا بانزعاج:-

- "(أمل).. ماذا يحدث هنا؟"

قالت بنبرة غريبة:-

- "(أمل) من؟ مع من تظن أنك تتحدث؟!"

يا إلهي! هذا صوت (عثمان) زوج أخته القميء!

ما الذي يحدث هنا؟!

فجأة تبدل كل شيء حوله، لم يعد هناك مقهى، ولا مطر، ولا زجاج، ولا موسيقى هادئة، وإنما وجد جدران غرفته كما يعرفها، وحوله يتحلق أفراد أسرته كما يعرفهم، وعيونهم مصوبة إليه.

تراجع للخلف مبهوتًا، وقال:-

- "أين أنا؟"

قال له أخوه (أحمد):-

- "اهدأ يا (حسين) أنت هنا في غرفتك.. لا تخف شيئًا.."

لكن (عثمان) زوج أخته القميء تقدم نحوه قائلًا:-

- "ماذا فعل (رمزي طارق)؟"

لم يجب (حسين)، وأخذ يقلب بصره في وجوه الآخرين كالمستغيث، وشعر بدوار شديد يحيط برأسه، مع شيء كالطنين يضرب أذنيه!

- "(رمزي طارق) غير موجود من الأساس.."

إنه (عثمان) زوج أخته السمج..

- "(رمزي طارق) رحل عن مصر منذ سنوات، وانقطعت صلته بالجميع، وهو ناجح في حياته هناك، ولا حاجة له لأن يؤذي أحدًا أو يدمر حياة أحد.."

مستحيل! وتراجع (حسين) أكثر، فارتطم بسريره، وتهاوى بجسده عليه، لكن زوج أخته السمج واصل التقدم نحوه وهو يقول:-

-"أنت تتوهم، عقلك الباطن يقوم بإسقاط أفعالك على شخص آخر، خصم قديم غير موجود، انقطعت صلتك به منذ سنوات طويلة، أنت من أخذت الصندوق من غرفة جدك، أردت أن تعاقبه لأنه يصر على مناداتك باسم شقيقك الراحل (حسن)، كأنه لا يريد أن يعترف بك.."

مستحيل! مستحيل!

-"الجد رآك وأنت تتسلل خارجًا من الغرفة ممسكًا بشيء ما، إحدى الجارات رأتك من النافذة تلقي شيئًا ما في صندوق القمامة الكبير بالشارع، بعض الأطفال كانوا يلعبون قرب صندوق القمامة ووجدوا صندوق الجد هناك.."

مستحيل.. مستحيل!!

توقّف الزمان في هذه اللحظات، لم يعد (حسين) يدرك إن كان جالسًا أم واقفًا على قدميه أم معلّقًا بين السقوط والفراغ، تهاوت الأصوات من حوله إلى همسات بعيدة، كأن العالم كله انسحب إلى نفقٍ ضبابيٍّ بلا ألوان.

الدوار يجتاح رأسه كإعصار، انقبض صدره كأن الهواء صار ثقيلًا لا يُستنشق، عيناه تسبحان في دائرةٍ مشوشة، لا تلتقطان إلا ومضات خاطفة من وجوه تائهة وأشياء تنهار في داخله قبل أن تنهار من حوله.

– "أنت صاحب حساب (رجل بلا قلب)، وجدنا الحساب مفتوح على جوالك، أنت من تراسل زوجة صديقك (هشام)، كأنك تعاقبه لأنه حصل على ما فشلت أنت في الحصول عليه: الحب، كل الرسائل والخواطر التي ترسلها إلي زوجة صديقك موجودة في دفترك هناك.."

مستحيل.. مستحيل!

كانت (سيلين) ابنة أخيه (أحمد) عندهم في منزلهم، واختارت غرفته بالذات لتعبث بها، لكنه تجاهل ذلك تمامًا، وألقى نفسه على سريره يفكر في هذه المعضلة، لا شك أنه (رمزي طارق) عرف كيف يتسلل إلى بيت (هشام) ويستدرج زوجته إلى علاقة عبر الشات، إنه أخطر مما يظن بكثير! هذا عمل شيطاني.. وأخذ يسترجع تلك الخاطرة في ذهنه مرارًا: "إلى امرأة بنكهة التوت.. عيناها قطعتا ياقوت! حين ترتدي الأزرق تبدو كغيمة عطر تلتحف بالسماء، وأنا الغريق في موجها الهادر، لكنني لا أرجو النجاة!"

(سيلين) تمسك بالدفتر وتحاول قراءة ما فيه، وأقبلت ترتمي بجواره على السرير وتسأله في براءة:–

- "إلى امرأة بنكهة التوت، عيناها قطعتا ياقوت!.. ما معنى هذا الكلام يا عمو؟!"

مستحيل.. مستحيل!

الأرض تميد تحته، يشعر كأن شيئًا غير مرئي يسحبه من أطراف وعيه إلى هاوية لا قرار لها، لم يعد يميز المسافات، ولا الوجوه، ولا حتى موقع جسده في هذا الفراغ الطارئ، رأسه يدور كدوامة عاتية، والصوت الداخلي يصرخ لكنه عاجز عن الخروج.

صوت (عثمان) زوج أخته القميء يواصل اختراق عقله:-

-"أنت من تعبث بعقل صديقك (مروان)، وتمكنت من زرع تلك الأحلام الغريبة في رأسه، لقد وجدنا في دفترك وصفًا دقيقًا لتلك الأحلام التي يعانيها صديقك، لقد عرفت كيف تتسلل إلى عقله، وتسيطر عليه بالرغم من ثقافته الواسعة، هل أردت أن تعاقبه لأنه حصل على وظيفة جيدة، أم لأنه يذكرك بتوءمك الراحل (حسن)، الذي كان يجعلك نكرة بجانبه؟"

مستحيل.. مستحيل!

صديقه (مروان) ليس على ما يرام، عرف هذا بمجرد أن نظر في عينيه الحمراوين بشكل مخيف، من قبل حتى أن يتحدث ويقول له بصوت مرتعش:-

- "لماذا أشعر بك دائمًا داخل رأسي؟"

- "من تقصد؟!"

- "لماذا لا ينفك صوتك يهمس في دماغي؟"

- "عمن تتحدث؟!"

- "لماذا تلاحقني دائمًا تلك الأحلام؟"

- "أية أحلام؟! عمّ تتحدث؟"

- "أريدك أن تغادر عقلي، فلتخرج من دماغي الآن!"

مستحيل.. مستحيل!

كل شيء يبدو باهتًا، مشوهًا، مشوشًا، إلى حد الرعب الوجوه حوله تتحرك ببطء غريب، كما لو كان يشاهد مشهدًا من خلف زجاج ضبابي، نبضه يتسارع، أنفاسه تتقطّع، والذهول يلتفّ حوله كشرنقة خانقة، لم يفهم ما الذي يحدث، لكن الصدمة ترفرف في عروقه كورقة جافة هوت من شجرة في مهبّ عاصفة.

- "أولى خطوات العلاج أن تواجه الحقيقة، لقد فقدت السيطرة على عقلك، لقد فشلت في كل جوانب حياتك، بينما نجح الآخرون، وتريد أن تعاقب الجميع على فشلك، وتعوض نفسك بالأوهام، يجب أن توقف هذه الأوهام الآن، وتعود إلى الواقع، وإلا تطور الأمر للأسوأ.. هل تفهم؟"

مستحيل.. مستحيل!

***

رسالة:-

- "ليس (رمزي طارق) وحده من يسعى إلى تدميري.... يا إلهي! حتى أسرتي تتآمر ضدي، زوج أختي متواطئ معه، استطاع أن يقنع الجميع بأني مجنون، مختل عقليًا.. يا إلهي! ماذا أفعل؟! لن أسمح لهم بوصمي بالجنون.. يا إلهي! يجب أن أحمي نفسي، بكل قوة! لن أتهاون مع أحد حتى لو كانت عائلتي!"

***

(٣)

طراك، تاااك، تشن.. يتصاعد لسان اللهب، وتتطاير الشظايا الصغيرة حوله!

كان يجلس خلف مكتبه كما لو أنه لا ينتمي إلى المكان، بل إلى لحظة بعيدة غامضة لا تزال تُمعن في ابتلاعه شيئًا فشيئًا، المكتب كان فوضويًا على غير العادة، كأنه يريد أن يتناسق فوضاه الداخلية، الضوء الساطع الذي اشتركت في صناعته الإضاءة الصناعية المثبتة بالأسقف، والإضافة الطبيعية القادمة من النوافذ المفتوحة، تلك الإضاءة لم يكن لها مكان بداخله، وانعكست من الخارج على نصف وجهه، بينما اصطبغ النصف الآخر بالظلّ الرمادي، تمامًا كما هو الآن.. نصفه حاضر، ونصفه الآخر غائب في تيهٍ لا مرسى، ولا نهاية له.

في يده اليسرى قداحة معدنية، كانت أصابعه لا تزال تعبث بها، تشعلها وتطفئها بطريقة رتيبة، والصوتِ المتقطّع يشبه طنين فكرة عنيدة لا تكفّ عن الدوران، يشعلها تارة، ثم يطفئها دون أن ينظر، كمن يعيد تمثيل مشهد قديم لا يتعب من تكراره.. شرارة النار تومض ثم تنطفئ، كلّما أضاءت كشفت لحظة وجيزة من حيرته المتكلّسة، من صمته الذي لا يبحث عن جواب بل يزداد بأسئلته اتساعًا.

أما يده اليمنى، فقد كانت تقبض على قلم كأنها تتشبث بشيء لا تُجيد سواه في هذا الضياع، وكان القلم يتحرك فوق ورقة بيضاء مثبتة فوق المكتب دون وعي منه، ولم يكن يخط كلمات، ولا جُملًا، بل خطوطًا طولية وعرضية تتشابك وتنفصل، كأنها متاهة على هيئة شبكة، يضيع العقل في ثناياها.

لم يكن يرى ما يفعل، لم يكن يدرك حتى أن الورقة امتلأت بتلك الخطوط التي لا معنى لها، لأن عينيه كانتا معلّقتين في الفراغ، في نقطة بين الزمنين، بين "ما كان" و"ما سيكون".

كانت نظرته ساكنة، شاخصة نحو الفراغ، لكنها لم تكن فارغة، بل مثقلة بما لا يُقال، كمن استيقظ من حلمه فجأة وسط ليله، ولم يجد الحلم ولا اليقظة.. حاجباه ينقبضان أحيانًا، كأن فكرة تمرّ فوق جبينه وتؤلمه، ثم ينفرجان في استسلامٍ جامد.. شفتاه تنفرجان أحيانًا عن تنهيدة غير مسموعة، كأن داخله يفيض شيئًا فشيئًا ولا أحد يسمع هديره إلا هو.

من حوله، كانت الغرفة صامتة، حتى الجدران بدت كأنها تنصت لما لا يُقال، تتواطأ مع سكونه، أو لعلها خائفة من كسر هذه العزلة الهشة، وحدها تلك القدّاحة، وذلك القلم، هما اللذان يتكلمان نيابة عنه: الأول يشعل جمرات الذاكرة، والثاني يرسم رمادها.

لحسن الحظ أن زميله الذي يشاركه المكتب تغيب اليوم، ولحسن الحظ أنهم لم يسندوا إليه عملًا جديدًا وطالبوه بأدائه، كما اعتادوا أن يفعلوا دائمًا، ظل جالسًا في مقعده، ليس ككاتب، ولا كحالم، بل كغائب عن العالم، حاضر في نفسه حدّ الاختناق، يشخبط دون وعي، ويعبث بالنار الصغيرة، كمن يستدرج شيئًا من داخله، شيئًا لم يخرج بعد، وربما لن يخرج أبدًا.

لم ينتبه إلا حين وقف الموظفين أمامه وناداه بصوت مرتفع، لينتزعه من متاهة الشرود التي استنزفته، ويطلب منه النظر في بعض الأوراق، وبعد أن غادر ذلك الشخص، نظر (نادر) إلى الورقة التي كان يشخبط فيها، وتفاجأ أن خطوطها مستقيمة ومنظمة!

***

- "ابن خالتي (ممدوح) مريض، أجرى عملية الفتاق في الإسكندرية، يجب أن أزوره، وربما أبيت هناك، إنه بمثابة أخ لي، هل تأتين معي؟"

كذا خاطب زوجته بطريقته المعهودة في الحديث، كان يعرف ما يفعل، يعرفه بدقة، وكان يجيد بكل اقتدار التظاهر بأنه لا يعرف أي شيء..

كان يعرف أنها سترفض، يعرف أنها ستفضل البقاء في البيت لتستقبل عشيقها الذي هو صديقه، وتتلذذ بفحولته، وتمنحه لذة أنوثتها، ولن تجد فرصة أفضل من هذه.

قالت بشكل قاطع:-

- "لا أحب المبيت بعيدًا عن بيتي، كما أن الولد مريض، ولن يتحمل مشقة السفر إلى الإسكندرية."

- "ألن تخافي المبيت وحدك؟"

- "لن أبيت وحدي، سأتصل بأسرتي وأطلب من أحد إخوتي أن يأتي ليبيت معي، اذهب أنت لتطمئن على ابن خالتك، ولا تشغل بالك بشيء.."

نعم لن تبيت وحدها، هو واثق من هذا، كما أنه يعرف جيدًا ما يفعل!

يعرف أنه سينتهي من عمله الساعة الثالثة عصرًا، ويعود إلى البيت ليجدها قد جهزت له حقيبته دون أن يطلب منها ذلك، ويعرف أنه سيتناول غداءه ثم يغتسل، ويستبدل ثيابه ويغادر، ويعرف أنه سيختار السفر بالحافلة تحديدًا ويحتفظ بالتذكرة، ويعرف أنه سيصل إلى الإسكندرية قبل حلول الساعة الثامنة مساء، ويتوجه إلى المستشفى مباشرة ليزور ابن خالته.

كما أنه كان يعرف أن ابن خالته له زوجة تبيت هناك برفقته، ويعرف أن ابن خالته سيعرض عليه المبيت في شقته الفارغة، لأن الأولاد يبيتون مع جدتهم هذه الأيام حتى يغادر الأب المستشفى معافى.

كان يعرف أنه سيقبل هذا العرض، وسوف يمكث بعض الوقت معهما، ثم يغادر إلى شقتهما بـ (جليم)، وكان يعرف أيضًا أنه سيقابل في طريقه جارهم الفضولي الحاج (رشدي)، وسيتبادل معه الحديث بضع دقائق، قبل أن يطلب منه وهو يبتسم بود:-

- "اسمح لي يا حاج أن أطلب منك طلبًا صغيرًا، أنا قادم من سفر وأشعر بإرهاق شديد، وأريد أن أستغرق في النوم، لكني أريد أن أصحو الساعة السابعة صباحًا، لأن لديّ مشوار هام جدًا، وأخشى ألا يوقظني المنبه وحده، هلا تكرمت وطرقت الباب عليّ الساعة السابعة بالضبط لتوقظني، وأعتذر إن كان طلبي هذا سخيفًا.."

كان يعرف أن جاره سيرحب بذلك، ولن يراه شيئًا سخيفًا، ويعرف أنه سيدخل الشقة وينتظر حتى يطمئن إلى استقرار الأمور، ثم سيرتدي معطفه الداكن، ويخفي رأسه بطاقية شتوية قاتمة، ويضع على عينيه نظارة سوداء، ثم يغادر الشقة والبناية كلها متسللًا دون أن يشعر به أحد.

وكان يعرف أن عليه أن يعثر على سيارة تقله إلى القاهرة سريعًا، ويعرف أنه سيصل إلى حيّه بعد الساعة الواحدة صباحًا، ويعرف أنه سيتوجه إلى البناية المجاورة لبنايته حيث لا يعرفه أحد، وسيصعد إلى السطح مباشرة، ومن هناك سيقفز على سطح بنايته، ثم ينزل إلى شقته بالطابق الخامس وهو يسير على أطراف أصابعه حتى لا يشعر به أحد.

ويعرف أيضًا بعد أن ينتهي من مهمته سيعود بنفس الطريقة، ويستغل الزحام والصخب بالخارج ليغادر دون أن يشعر به أحد، ويعرف أن عليه أن يعثر على سيارة أخرى تقله إلى الإسكندرية ليصل إلى شقة ابن خالته قبل الساعة السابعة، ليستيقظ على طرقات جاره الفضولي.

كان يعرف جيدًا ما يفعل، وما سوف يفعل!

الشيء الوحيد الذي لم يكن يعرفه: هل سيكون صديقه (عاصم) هناك برفقتها، أم أنه سيكون قد اكتفى من اللذة وغادر قبل وصوله؟ على أية حال هو مستعد لكلا الاحتمالين.

- "آه يا (ريم).. لو تعلمين كم أحبك!"

كان (نادر مسعود) شخصًا وديعًا ومسالمًا للغاية، بل كان مثالًا للشاب الطيب الوديع المسالم الذي لا يمكنك أن تراه غاضبًا أو حانقًا على شيء، ولا يمكنك حتى أن تتخيله يتعارك مع أحد.. ولو باللسان.

***

(٤)

نعم يا سيدي.. سأخبرك بكل شيء كما وعدتك، وأنا لا أحنث بوعودي.. لكن..

لكن صدقني يا سيدي أنا لا أعرف أي شيء عما تسأل عنه! من (رحيل) هذه؟ لا أعرف أية امرأة بهذا الاسم، تقول إنكم عثرتم في جوالها على رسائل موجهة منها إليّ تتساءل عن حقيقة السفر عبر الزمن..

نعم، أظنني أذكر مثل هذه الرسائل، وأذكر أننا رددنا على إحداها في إحدى حلقات برنامجي، لكني صدقًا لا أعرف من التي أرسلتها، الرسائل تأتيني في الغالب من مجهول.

ماذا تقول سيدي؟ أخوها سقط بالسيارة في هوة سحيقة، وقضى نحبه أسفل؟ لا علم لي بهذا إطلاقًا، أنا لا أدري من هي أصلًا، فكيف أعرف عن أخيها؟ لعله انتحر، الشباب مثقل بالهموم والأزمات خاصة في هذه الأيام، وبرنامجي كشف لي أن تلك الهموم والأزمات أثقل وأعقد بكثير مما يتخيل أحد، وهناك شباب هش لا يقوى على المواجهة، ولا يجد سبيلًا إلا الهروب، حتى لو كان الهروب إلى العالم الآخر!

ماذا يا سيدي؟ ما علاقة موته بالسفر عبر الزمن؟ ليتني أعرف يا سيدي، الموت في حد ذاته انتقال عبر المكان والزمان حسب علمي، لكني لا أعرف شيئًا محددًا عن الأمر، فأنا لم أجرب السفر عبر الزمن من قبل، وبالتأكيد لم أجرب الموت أيضًا، كيف لي أن أعرف؟ لو كنت أعرف شيئًا لأخبرتك يا سيدي، لقد وعدتك بهذا.

ماذا يا سيدي؟ (حسين)؟! من (حسين)؟

لا أعرف أحدًا بهذا الاسم أيضًا، ماذا؟ وجدتم رسائل على جواله موجهة إليّ أيضًا يتوعد فيها بقتل الجميع؟ لا علم لي بهذا يا سيدي، وأنا يوميًا أتلقى عشرات – وفي بعض الأيام مئات – الرسائل، وبالتأكيد ذاكرتي لن تستوعب فحواها جميعًا، ومن المؤكد أيضًا أني لن أتجشم مشقة معرفة هوية مرسليها.

ماذا فعل هذا الشخص يا ترى؟ مختل عقليًا هو؟ ما أكثر المختلين عقليًا في زماننا هذا يا سيدي! يفعل أشياء لا يعيها، ويتوهم أشياء لم تحدث! مسكين هو، هذا حال كثير من الناس هذه الأيام.

ماذا يا سيدي؟ حاول قتل زوج أخته؟ هذا أمر فظيع، ماذا؟ زوج أخته هو الذي اكتشف جنونه وأوهامه؟ إذن هذا طبيعي، الشخص المستغرق في الوهم يرفض الواقع، ويعتبر الشخص الذي يحاول انتزاعه من أوهامه وإعادته للواقع عدوًا له، هذا طبيعي يا سيدي، لكن صدقًا أنا لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر، أو عن هذا الشخص.. صدقني يا سيدي.

من يا سيدي؟ (نادر مسعود)؟ من (نادر مسعود) هذا؟ لا أعرف أحدًا بهذا الاسم على الإطلاق، ترى ماذا فعل هو الآخر؟ زوجته سقطت من الشرفة من الطابق الخامس؟ يا إلهي هذا أمر فظيع جدًا، هل دفعها أحدهم، أم أنه قضاء وقدر؟ تشكون في صديقه (عاصم)؟ من (عاصم) هذا؟ آه.. عشيق زوجته، كان يبيت عندها ليلة وقوع الجريمة حسب شهادة بعض الشهود، هذا أمر فظيع أيضًا، لكن أين المعضلة إذن؟

آه.. وجدتم رسالة من (نادر) نفسه يعلن فيها عن رغبته في قتل زوجته وصديقه الخائنين، آه.. إذن الزوج كان يعرف، ولديه دافع قوي للغاية، القتل بسبب الخيانة الزوجية أمر شائع جدًا، لكن – عذرًا يا سيدي – اختلط عليّ الأمر، كيف تشكون في صديقه بينما هو الذي أرسل تلك الرسالة؟

آه.. لم يكن هناك ليلتها، كان يبيت بالإسكندرية، وقد تأكدتم من هذا.. آه.. إذن ربما صديقه هو الذي فعلها، أي اثنين تجمعها مثل هذه العلاقة من الوارد أن يختلفا معًا، ويفكر أحدهما في إيذاء الآخر، ربما هددته بشيء فقرر أن يتخلص من تهديده بالتخلص منها، ربما..

في الحقيقة، لست واثقًا من شيء، ولا علم لي بأي شيء على الإطلاق، أنا مجرد رجل يتلقى الرسائل التي تحمل هموم الناس وأوجاعهم، وأحاول مساعدتهم في التوصل إلى حلول لها..

رسائل تحمل ضعف الإنسان أمام عالمه الحقيقي، وعجزه عن مواجهته، لكني أعرف يقينًا يا سيدي أن الرسائل المكبوتة بداخل هذا الإنسان أصعب وأعقد، بدليل أنه يعجز حتى عن التعبير عنها..

إنها رسائل مكبوتة أشبه بالشظايا تبحث عن فرصة للاندلاع، وقد تنفجر في أوقات السكون: بين سطور كتاب، أو في زلة لسان، أو في نظرة من عابرٍ يشبهه، أو في دمعة حارة، أو حتى في تنهيدة تحمل اللهب المستعر في الأعماق.

هي رسائل أكثرها لم يُرسل، ولن يُرسل، أحاديث لا نجرؤ على قولها حتى أمام المرآة، وحروف قد نخطها لكننا لا نلبث أن نمحوها قبل أن يراها الآخرون، أو أسئلة نمتنع عن الجهر بها لأننا نعلم أن السؤال لم يعد يعني شيئًا هناك..

إنها رسائل تحمل أوجاعنا، أو عجزنا، أو ندمنا.. لكنه ليس ندمًا على شيء فعلناه فحسب، بل على أشياء وددنا أن نفعلها ولم نقدر، على الثقة التي منحناها لمن لا يستحق، على الكلمة التي قيلت دون تفكير، أو على الباب الذي أُغلق دون وداع.

رسائل تعكس عزلتنا ووحدتنا، تلك الوحدة التي لا تنشأ من غياب الناس، بل من غيابنا بين هؤلاء الناس، أو غياب مَن نفكر به في حضور الجميع، الوحدة التي تجعلنا نجلس في مكان مزدحم ونشعر بأن لا أحد يرانا، كأننا ذلك الهواء يُستنشَق ويُنسى.

تلك الوحدة ذات الملمس البارد، مثل قطع الثلج الصلبة التي بالكاد تستطيع أن تلمسها، لكنك لا تستطيع أن تشربها مهما بلغ بك الظمأ.

تلك الوحدة التي تشبه ضوء غرفة لا يُطفأ، لأنك تخشى أن تنام في الظلمة تمامًا، لا خوفًا من الليل، بل خوفًا منك.

أنا لا أعرف شيئًا يا سيدي سوى تلك الرسائل المبهمة، الرسائل التي تخفي التفاصيل الدقيقة في طيات حروفها، ولا تستطيع أن تقرأ سوى ظاهرها، وظاهرها لا يكفي أبدًا لإدراك الحقيقة.

لو كنت أعرف شيئًا لأخبرتك، صدقني يا سيدي!

***